أ سأنام الليلة ؟

أسأنام الليلة؟

أشرف حمامة

كل ما يخيل يكتب وكل ما يكتب يقرأ وكل ما يقرأ يخيل.

فعقلي ليس بسجين منطق وما عقولكم بسجينة منطق.

ولو كانت كذلك لما جمعت هذه الكلمات ونوت خوض الحرب النفسية القائمة داخل هذه الشقة.

ما زال صاخبا يترنح فوق سريره ويسأل نفسه الخاضعة:

أسأنام الليلة؟

ألو، اسمي شفاء.

ألو، و أنا اسمي مريض.

إذن سأكون أنا شفاؤك.

أخاف أن أكون أنا مرضك.

*

حمل أثقاله وهاج، كالأمواج تضرب الرصيف هاج، صد الباب خلفه مشققا عوده ثم ماج، حذاؤه لا يرحم حجارة الرصيف، يمشي غضبا والغضب عنده هاب، يبصق شامة على ما فات، كارها حاضره مجوف الإنجاز، حاقدا على مستقبله ضامن الويلات.

هاج وماج وارتمى عند مرمى ذاك الزقاق، زحف داخله كالسلحفاة، ثم اختفى داخل قوقعته يخاف.

دق ثلاث دقات بالقوقعة الواهمة، أخرج رأسه رويدا ولم يجد المدق، عاد بعجالة كالنعامة الخو افة، استحلى العتمة الخداعة، وتمنى لو زارها قبل هذا.

ثلاث دقات مرة أخرى ضاربات، أطل مسرعا لعله يكتشف الو افدات، خيل له خيال راكض انعطف يمينا هاربا، غضب غضبة انكمش اثرها الجبين غضبا، عاد

لقوقعته وعند ولوج تغره وقبل أنفه دقت من جديد الدقات الثلاث، عيناه تر اقب المنعطف وأحدا لم ينعطف، تعجب مستغربا من أخد قوقعته طبل مطرب فرحا، يضرب بصخب عتمة رأس نائما. التفت باحتا وما زال ملتفتا، ثلاث دقات رغم أن رأسه ما زال قائما، أمعن النظر حوله ولم يجد أحدا.

سأل:

من يدق؟

أجابه باطنه:

أنا الذي يدق.

أدرك حينها أن هواجسه المجنونة تعاهدت عليه مع وساوسه المكبوتة، تشابكا يدا في يد وأعلنوا عليه حربا نفسية، يوما ما ستقتله إما إعداما أو انتحارا، حربا حتما ستأخذ روحه وقد تأخذ معها أرواحا أخرى.

قام قائما مكسرا قشرة القوقعة، اكتشف عندها كم القوقعة جد هشة عكس ما كان يظن. وكانت انتفاضته هاته أول نقطة تحسب لصالحه في هاته الحرب النفسية، أول نقطة ضد هواجسه ووساوسه.

وقف متلذذا بالانتصار، لكن لما نظر داخله هلع وجزع! أعين جاحظة حمراء تطل عليه من باطنه، تنظر وسط ظلمة نظرة خبث وكيد مكايد. قفز من مكانه وهرب مسرعا لعل المكان هو السبب، ولعل هذا الزقاق مشؤوم به دم متخثر لبشر مغدور.

ركض أميالا ولما التفت وجد الأعين ما زالت تتبعه، يلهث ويركض ولما اقتربت منه انزلق. ليسقط جثة عرقة بجانب سريره.

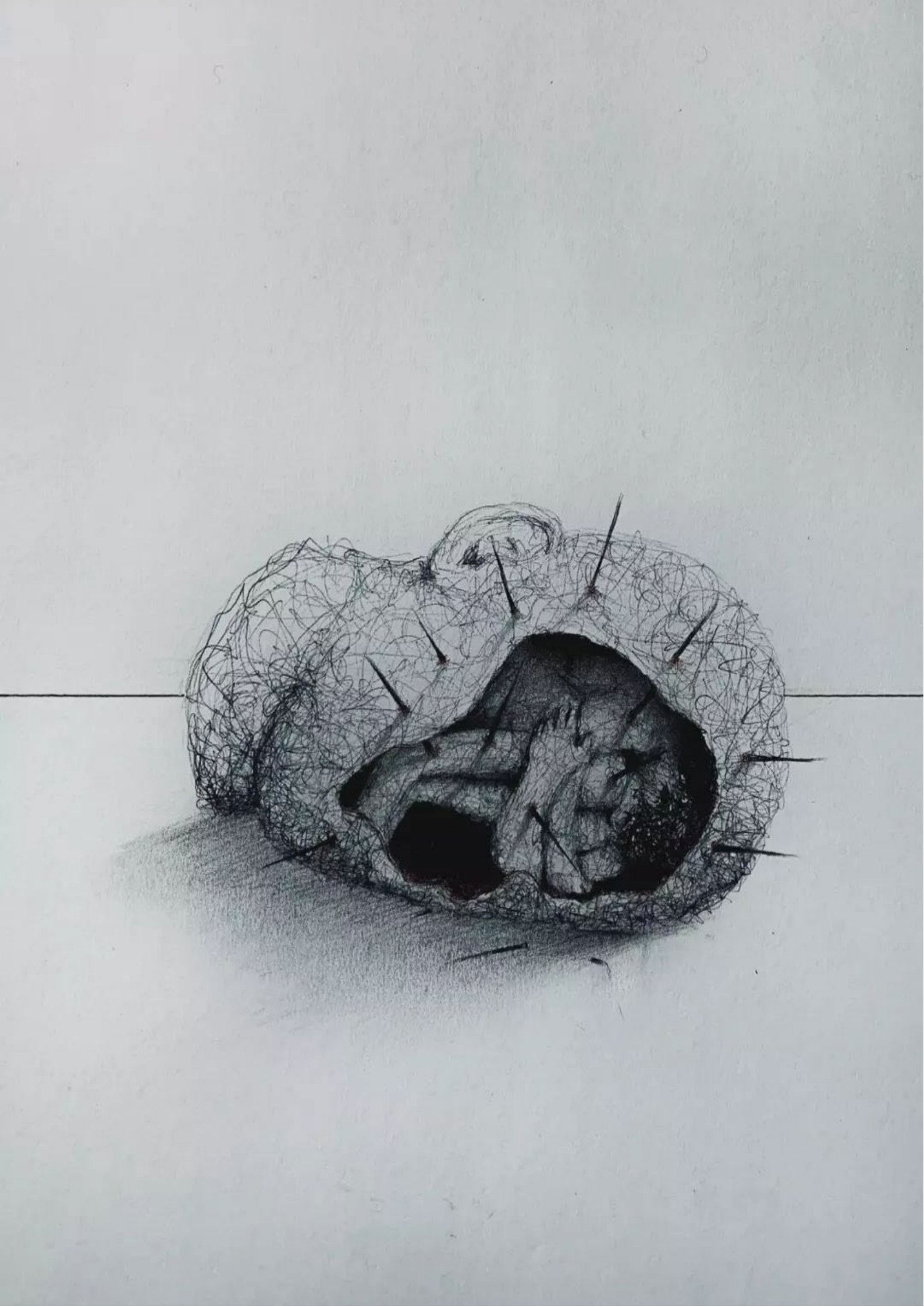

شـهق شـهقة مطولـة لعلهـا تنسـيه حلمـا شرسـا، لكـن هيهات.

قام من على السجادة وتوجه نحو المرحاض ليجد نفسه بالمطبخ، التف ليعود فوجد الباب سار بيمينه والحائط يقابله، ثم توجه نحو الباب مرة أخرى فعاد الباب لمكانه وبات الحائط يقابله من جديد، حاول الخروج لكن أين المهرب؟ يأتيه الباب كل مرة من جانب. تعب وضل و اقفا بمكانه ير اقب ألاعيب الجماد، لوهلة استقر الباب أخيرا أمامه، وجدها فرصة سانحة فركض اتجاهه بكل همة وطاقة. اختفى الباب واصطدم بالحائط، استحالة تلك الطاقة لألم، بكى بحرقة فامتزج دمعه مع دمه ليسير على عنقه ثم يخترق شعر صدره. تمرغ على الأرض ثم زحف الى ركن المرحاض أم المطبخ رغم أن الأثاث أثاث غرفة النوم. تقوقع حول نفسه وبات سلحفاة ثم دخل داخل قوقعته يرتجي زوال العذاب.

دق ثلاث دقات، تضرب قوقعة عزلته، لم يطل برأسه هذه المرة. والدقات بإلحاح ما زالت تدق أكثر من الأول لكن رغم ذلك لم يطل برأسه.

"يا هواجسي المجنونة يا وساوسي المريضة انطردي عني".

ازداد طنين والحاح اليد الضاربة، استسلم في الأخير وأطل. يدا تقترب من كتفه لتطبطب عليه، لما رفع رأسه ناحية صاحبها هلع وجزع، رجع للخلف وتمنى لو يمتزج مع الجدران ويختفي، رجعت اليد لجسدها. إنها أمه من تقف أمامه، تنظر إليه نظرة خاوية دون شعور غير متأثرة بأفعال ابنها. يصرخ منكمشا على نفسه ومرة مرة يلتفت لعله يجد الباب خلفه، لكن فقط الحائط من يحاصره من الجهتين، وأمه ما زلت و اقفة أمامه. مدت له يدها وكلما اقتربت جف الدم منها، وعند ملامسة شعيرات وجهه الخفيفة جف كل الدم من اليد، ثم من الدراع جف أيضا، ثم الجسد كله صار أبيضا شحفا. جثة متحركة.

خاطبها بذعر وخوف:

أنت ميتة منذ سنين! عودي لقبرك، حتى أنت يا أمي.

سقطت أمه في الفراغ تحت قدمها وكأن الأرض امتصتها. اختفت أمه فارتمى بالبقعة حيث اختفت وبدأ يتمرغ في أرضها.

"آه، آه، استيقظ".

لا يعلم ما يمر به حلم أم حقيقة. كل ما يعلم أن نفسه تخدعه وتحاربه. غلقت جميع المنافذ لا مهرب له الآن، وجد نفسه وسط غرفة تحاصره جدرانها لا نو افذ ولا أبواب، لا مخرج ولا نسيم هواء، فقط بساط وسقف وحيطان.

وقف وسط الغرفة ولم يعد خائفا، استسلم لمكايد ذاته، رفع رأسه وبات هادئا، نظر نحو الجدران ولم يهلع أو يختنق. رفع بكل استرخاء وببطء يده نحو جيب بصدره، ليحمل منه قنينة زجاج صغيرة بها دواء ما، ثم أفرغ جل

الحبوب الحمراء بكفه، ورماها بفمه جرعة زائدة، أحس بملمس الحبوب يداعب لسانه ولما بلعها بلع ريقه فقط، بلعها مرة أخرى فريقه من يبتلع فقط، يتحسس الحبوب يمضغها جيدا ثم يمضغها لكن الريق فقط من يعبر حنجرته.

بصق الحبوب بكفه لكن فقط لعابه من ارتمى فوقها، بجنون وهستيرية يتحسس الحبوب بلسانه جد متأكد أنها هناك، لكن لوهلة اكتشف أنه يتحسس أضراسه و أنيابه فقط.

حتى أنت يا لساني. لم يستغرب وما عاد غاضبا، جثا على ركبته ثم كسر قنينة الزجاج الفارغة بقوة على الأرض لتتناثر شظايا الزجاج بجانب قدمه. شك أنه زجاج حقيقي، ليتأكد لمسه بسبابته فجرح، لما رأى الدم فرح، إنه زجاج حقيقي، إنه المهرب، أفرحته حقيقة الألم الذي أحس به. حمل أكبر قطعة زجاج بيمينه ثم رفع يده اليسرى، وضع رأس الزجاجة الحادة فوق معصمه متلذذا

الألم بجنون ضاحكا بهستيرية، إنه المهرب اتبعيني يا هواجسي ووساوسي إن استطعت.

ذبح شريانه وذبح وخدشا لم يحدث، نظر إلى الزجاج التي ظن أنها بيده ولم يجد سوى القماش، قماش قطعه من جيب صدر سترته، نظر إلى الأرض فلم يجد سوى خيوط القماش مبعثرة.

"مازال الأوان لم يحن"

قفز من مكانه لما سمع الصوت الخشن الغليظ يخاطبه، لم يلتفت باحثا عن مصدره، بات يعلم أن الصوت آت من داخله.

كلما حدثه الصوت الذي بداخله، هلع ودهش من نبرته، يدرك بطريقة ما أنه ليس صوته ولم تكن يوما تلك نبرته.

متأكدا أنها ليست نفسه من تخاطبه، ولعل كائن ما يسكنه.

"أحس أن مسا ما اعتراني، وكأن كائنا ما سكنني، وحبذا لو أني أصادقه ولا أشتري عداوته، فحتى الآن أنا الخاسر، لقد استحوذ علي، تحكم في أطرافي وجوارحي. لكن بما أني أدرك كل هذا فهناك حاجز خفيف بيني وبينه"

لما عاد من شروره وجد أن الغرفة ما زالت على حالها تحييه بجدرانها السميكة، استسلم ثم اتكأ نائما.

لما استيقظ وجد نفسه مرمي فوق سريره، يحاول جاهدا إدراك أي قوى خارقة أتت به فوقه، لكنه شك أنه أصلا لم يبرحه.

يلمح ورقة موضوعة بعناية فوق صدره، يرفعها ولولا خط يده ومداد قلمه لما علم أنه هو من كتبها، لا يتذكر متى كتبها. يقرأ وكلما تخطى كلمة يتأكد أنها ليست كلماته ولا أفكاره، لكن خط يده ومداد قلمه يدحض يقينه. ما الحبر بالورقة الا حبر قلمه، وما ركاكة الخط الا ركاكة خطه، هكذا يتأكد أنه هو من كتب فوق هذه الورق ووضعها بيده فوق صدره، لكن كيف ومتى لا يعلم.

حدت الورقة لعله يتذكر.

***

الحياة عزاء

دخلت من باب موصد ولا تسألني كيف فعلت ذلك
وان تهت فأنا الذي اخترت

كبرت وباتت أطرافي مسجونة وزادت معها هواجسي المجنونة

تبث لما أحرقت بنار الإنسان لأني تساءلت حينها كيف هي نار الإله

تذكرت وحشيتهم وخشيت عظمته كلما نظرت لحروق

لن أكون يوما جلادا ما دمت قد تذوقت سوط الجلادين

أن تعريت رأيت ندوبا على ظهري لا تخف مجرد مآسي الحياة

وقفت قائما ونفضت جل الرمال من على كتفي تشنجت أطرافي وحان وقت الهرولة ونسيان الماضي

أمشي في الخلاء وصوت يناديني بإسمي وأخاف ان ألتفت ويأخذني بعيدا

علمونا الخوف من الغيب كبرنا وتلذذنا برسم الغيب

ندمت يوما لماذا لم التفت؟

لربما كان صوت ملاك من ناداني

تمثلت أمامي وبدأت تراقصني قبيحة هي

لماذا لا أتخيل إلا القبيح؟

سميتها العزاء لأنها ماتت ولم يعد لدي إلا النواح

الحياة عزاء على من بقي أما من راح فقد ارتاح

هكذا أمورنا ألواح مبعثرة وحتى لوتجمعت ظلت صورا مشوهة

أجرمت في حق نفسي لم أختر الكوكب المناسب

وكأنه كان بيدي الخيار ولم أكن سديد القرار

تجمنا وأخد كل منا مسار أظنني كنت سكرانا ولم أوفق الاختيار

وهكذا قد جنيت على ملذاتي وبت عبد كوكبكم القذر

وكأنني أقف بقمة الجبل وأصرخ بحرقة وسدى صوتي يتردد ومن شدة الجنون لا أصرخ إلا باسمي

أرى ظلالا عملاقة شامخة تتموج عند كل صرخة مني تتفاعل مع حروف اسمي وأكنها وجدت شفرة الحياة

أغمدت عيني واستيقظت بشقة مظلمة وسط الفراغ

وإن رفعت بصري لا أرى لها حدود

غير متأكد أكنت نائما والآن استيقظت

أم أني كنت مستيقظا ونمت وما زلت لم أصحو

***

أحكم قبضته على الورقة ورماها في حركة تلقائية بسلة ممتلئة بالأوراق المنكمشة موضوعة بجانب سريره، نظر نحوها محاولا استفسار عقله عن مصدر تلك الأوراق، لكن لم يكلف نفسه عناء الجواب، لأنه يعلم أنه ليس هناك حقيقة ستأتيه من داخله. أزاح بصره من على الأوراق المتراكمة. نهض من على السرير وسار نحو. نحو ماذا؟ نحو المجهول.

أليس موضع القدر مجهول، وما النوايا سوى خديعة، وما الأماني سوى جرعة صبر، وما الأمل سوى قنينة خمر تنسيك آلام الحاضر، لكن لا تشفيك أبد الظهر.

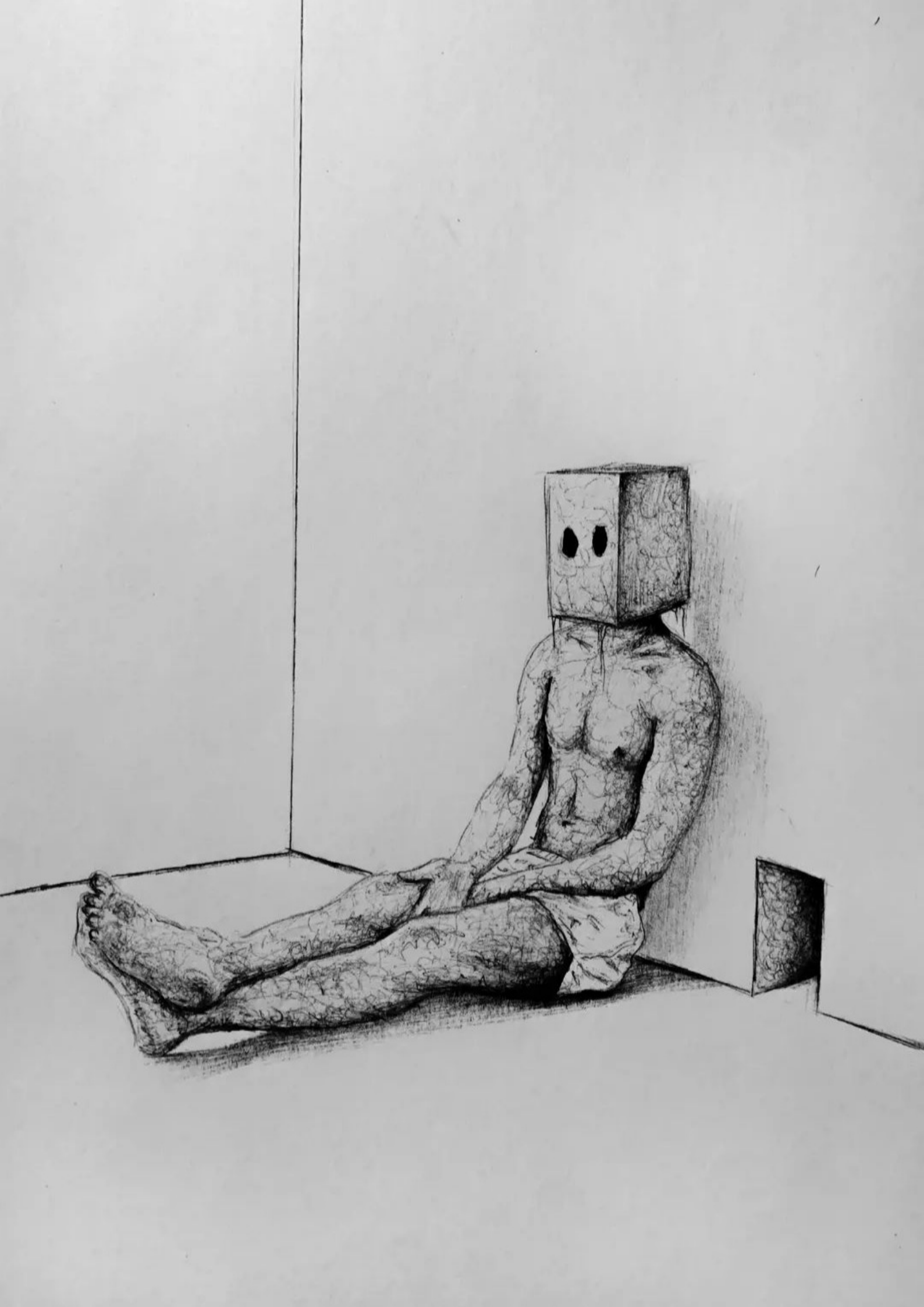

*

يستمع لموسيقى كلاسيكية هادئة، يتبادل فيها نبض الجيتارونوتات البيانو الرقص بحضورزفير الناي.
موسيقى هادئة عكس عقله المشوش، تناقض جلي بين ما يسمع ومن يسمع. يسير نحو حتفه مستقلا قطارا كهربائيا يزحف كسحلية بين أزقة المدينة الفقيرة منها والر اقية، موسيقى صامتة تريح عقله ولو قليلا، يسرح بناظريه نحو الركاب. مخاطبا نفسه:

"ماذا لو انشقت السماء و انبثق من شقها مكبرات صوت، تطلق بعنان صوت الجنة وضحكات التو ابين، تطلق موسيقى السلام، موسيقى كلاسيكية صامتة لأي خالد كيفما كان.

أسيتلذذ بها كل البشر؟

أستطهر أرواحهم؟

أستطفئ غليلهم؟ "

يفترس بعينه من تحت نظاراته السوداء القاتمة التي لا تشي بفضوله وعدم حياءه للركاب، حاشي رأسه داخل قب معطفه الغليظ، يحاول تقمص العمق والمعرفة، موهما نفسه أن حكمته ناتجة عن عمق معرفي خاص وعلم داخلي خالص، راكمها من استنباطاته الباطنية.

كلما نظر أحد الركاب لعينه مباشرة أو بالأحرى لنظاراته السوداء غير الشفافة، أزاح ببصره بسرعة مخافة أن يكتشف تطفله، يوجه وجهه للناحية الأخرى ليس استحياء بل خوفا، مسوس هو، رغم أن حجاب الزجاج يأبى كشف نظرات سيده، ورغم أنه يعلم ذلك، فجبنه يسيطر عليه.

جالسا بزاوية القطارير اقب الركاب وكلما سقطت عيناه على أحد رماه بقصة ولقب. فهذا الرجل الأنيق ببدلته الغالية، ينعته بالسارق والمرتشي، وكأنما نقش على جبهة الرجل المسكين ذلك اللقب. ويبدو جد متأكد من كل لقب

يلقيه، بل حتى أنه يعطي تعليلا لنعته ويؤمن بمبرراته، يوهم نفسه بعمق المعرفة وما هو سوى أحمق جبان.

وإن صعدت أي فتاة يرميها بأقبح الألفاظ. وحصل مرة أن صعدت فتاة جد محتشمة، فنعتها بأقبح النعوت، ولما التفت نحوه، هزت نظراتها غير المقصودة كيانه. أزاح ببصره وسكت عقله بل حتى أنه نزل مسرعا بأقرب محطة، يهرول مبتعدا وهو يلتفت نحو القطار ويلهث.

"أظنها سمعتني لكن كيف؟ لقد كنت أكلم نفسي فقط، أظن أنني انجرفت وأدنت لصوت أفكاري أن يخرج من لساني، لهذا سمعتني. تبا لها كادت تقبض روحي".

يفكر فيها وما زال رجليه تهرع مبتعدة. يسير نحو حتفه، صعد الدرجات الأربعين التي تقوده نحو شقته، تقوده نحو مرقده ومتكئه، تقوده نحو عذابه وألمه.

يصعد الأربعون درجة. أربعون هذا ما قاله له مالك العمارة في أول لقاء لهم. ما زال يسأل نفسه عن سبب بوحه له بهذا السر الهام، أربعون درجة، أ لأنه لاحظ عليه العياء؟ أم أنه نحيف أكثر من اللازم؟

بات كل مرة وهو نازل من شقته يعد عدد الدرجات فيجد أن العدد أقل من أربعين درجا، وفي كل مرة يعد وهو نازل يجد العدد أقل ومختلف عن سابقه.

يصبر نفسه أنه عند صعوده سيجد نفس العدد الذي وجده عند نزوله. وعند صعوده يعد عشرة عشرون ثلاثون أربعون والدرجات ما زالت لم تنفذ، ما زال العد متواصلا، يجن جنونه ويبدأ في الصعود بسرعة لعله يحد الدرجات المشؤومة ويحد معها شكه ووسواسه القهري.

هرع داخل شقته أخيرا، اتكأ على بابها بعدما أغلقه بإحكام. ما زال العد الخاطئ يتردد على رأسه، هكذا حمل هاتفه ليستفسر صاحب العمارة عن سبب بوحه له بعدد درجات العمارة الأربعون.

فتح لائحة الأرقام المسجلة، وكان البحث جد يسير إذ أنه لم يجد سوى رقم واحد يتربع على الشاشة وحيدا، و أكيد لم يكن رقم صاحب العمارة. نظر للرقم، الذي هو في أصل يحفظ أرقامه عن ظهر خاطر، نظر للاسم المحفوظ به الرقم وتمعن فيه لوهلة مرة مديدة، ثم دون أن يطفئ الهاتف رماه فوق الأريكة، وارتمى هو بكل ثقله على كرسي بجانبه طاولة صغيرة وضعت فوقها مذكرة قطعت معظم أوراقها. غضب لما رأى أن أوراق مذكرته الغالية قطعت، شك أن أحدا هو من فعل ذلك لأنه لا يتذكر أنه هو الفاعل، لكن لا أحد يزوره وليس له أصدقاء ولا أقارب يأتون في غيابه. قام وتوجه نحو الباب وأدار قفله ليوصده إلا أنه موصد أصلا عن بكرة أبيه، هكذا بحركة خرقاء أعاد فتحه ثم أغلقه من جديد. جلس من جديد على الكرسي ورفع المذكرة يتمعن في أوراقها المقطوعة يلمسها بلطف وكأنه يواسيها على فقدان أطرافها. يرفع رأسه نحو غرفة النوم المقابل للكرسي مباشرة، وفي زاويتها بجانب

سريره سلة ممتلئة بأوراق المذكرة منكمشة ومرمية بفوضة. تعجب متى فعل ذلك؟ وهل هو حقا من فعل ذلك؟ أو هناك من يعتو عبتا بشقته كلما كان غائبا؟

ولكي يدحض شكه توجه نحو السلة ورفع ورقة كانت تناديه بين الورق ليختارها.

تمعن في خط يده لوهلة وبدأ يقرأ برنة:

***

الموت والحياة سيان

كلاهما بداية ونهاية

أنا وأنت متشابهان

كلانا ولادة وممات

هي وهوزوجان

لكليهما تابوت وكفنان

هم وهن اخوان

بالقبروليمة للديدان

أنا و أنا

في عقل واحد متفرقان

وفي فكرة واحدة متضادان

أنا و أنا

في قلب واحد متنافران

وفي دم واحد غارقان

أنا و أنا

في جسد واحد متزاحمان

وفي ذات واحدة متحاربان

أنا و أنا

في عمرواحد متشاركان

وفي خاتمة واحدة مختلفان

أنا و أنا

موت وحياة

أموت أنا ويحيى أنا

أنا و أنا

خلود وفناء

أخلد أنا ويفنا أنا

***

جن عقله من تقل الكلمات، متأكد أنها ليس كلماته، يعرف نفسه بالغباء المطلق وليس الحكمة المحضة. لكن رؤية ركاكة خطه على تلك الورقة، الورقة التي مزقت من مذكرته، ورؤيته الحبر الذي خطت به الكلمات مشابها لحبر قلمه. القلم الذي لا يفارقه أينما حل وارتحل، رغم أنه لم يستعمله يوما، حتى هو يتساءل لما يتكلف عناء حمله كل مرة رغم العزوف عن الكتابة به. لما رفع القلم وجد ما يزيد على نصفه قد أفرغ، اندهش للأمر أكثر الا أنه لم يدقق في الأمر لأنه يعلم أنه لن يجد أي جواب. كما لم يجد جوابا لعدد الدرجات الأربعون.

خرج من غرفته ونظر نحو مدخل الشقة بدى له الباب مفتوحا وهو متأكد أنه قد أحكم إغلاقه، لكنه هنا أيضا لم يدقق في الأمر. هكذا توجه بتثاؤب نحو الباب ليغلقه، لكن عندما سمع صوت أحد الأطفال يصعد الدرجات وهو يعد عددها فتح الباب قليلا، وبفضول أطل من الشق

ير اقب الطفل. عند العدد أربعون انتهى الطفل من العد ومنه من صعود الدرجات ثم توجه نحو ظلمة الرواق واختفى.

فرح صاحبنا أن عدد الدرجات أربعون، هكذا هم بالنزول وهو يعد، لكن فقط أقل، ثم صعد وهو يعد لكن فقط أكثر. نظر نحو الرواق حيت اختفى الطفل ولكي يصبر نفسه قال:

"مجرد طفل".

دخل شقته وأغلق الباب وراءه بإحكام وهو يعلم أنه سيعود ليتأكد من اغلاقه مرة أخرى.

ما زال عازما على الاتصال بصاحب العمارة ليسأله في أمر الدرجات المشؤومة. مر بالأريكة نظر نحو الهاتف، ما زال مشتعلا ورقما واحد يعتريه باسم واحد.

جلس على الأريكة حمل المذكرة ثم هم يبحث فيها عن رقم هاتف مراده، يبحث ويبحث لكنه مرارا يجد فقط رقم

واحد، نفس الرقم الذي سجل وحيدا على الهاتف. تمعن هذه المرة كثيرا في الرقم والاسم المكتوب عليه، ثم حمل الهاتف و اتصل بالرقم باستسلام.

رد عليه صوت غير مبال أن الخط مقطوع أو خارج التغطية، لم يتفاعل صاحبنا مع الأمر، يبدو جليا أنه كان يعلم المجيب مسبقا. رغم ذلك رفع هاتفه وعاود الاتصال من جديد، لكن نفس الرد. أجهش بالبكاء ورمى الهاتف فوق الأريكة، وصوت داخله يقول:

"أ تتصل بالأموات؟"

يدرك أنه يتصل بالأموات، لكنه كان يتمنى لو أن الموتى يردون عليه من القبر. قرأ الاسم المدون على الرقم بصوت مبحوح.

"والدي".

مريض هو، في العديد من المرات لما تقابله الحياة بالخيبات والويلات، يحمل هاتفه ويتصل بأبيه الميت، آملا أن تجيب عظامه من قبره أوروحه من السماء.

*

إنه الليل قد حل بعذابه ووساوسه، غروب الشمس يأذن بحرب نفسية طاحنة بداخل صاحبنا المعذب. ينظر نحو النافذة التي يخترقها بصيص شعاع منبثق من مصباح هرم يضيء منذ عقود عتمة الزقاق الخلفي النتن. يقصد النافذة وطواعية يغلق الستائر السوداء الغليظة فيعم الظلام أكثر.

عجبا كيف تجد قدماه موضع قدم، كيف يهتدي في الظلام دون الارتطام أو الاصطدام بالأثاث. يحمل الهاتف ويغلقه ثم يقصد الباب المغلق ليصده، يسير نحو الباب متأكدا أنه مغلق الا أن وساوسه تقول:

"لا ضرر في أن أتكد".

ظلام وسكون فوقهم تو ابل شكوك ووساوس، طقوس حرب نفس خاضعة تتجدر بكيانه المريض. ينظر نحو موضع الهاتف ويقول:

" ألن تجيب؟"

زارته اللعنة من أعماقه، تبتلعه وحشة الشقة وظلامها. سكون تام ثم تسمع خطوات مشاعره وعواطفه تتسكع بحرية بزوايا الشقة، لا يعيقها ظلام ولا يصدها أثاث، وقد يختلط وقعها مع صراخه المكتوم مرة، مرة. متكئ على الحائط، مستيقظ أو في سبات، تارة يترنح ويصرخ وتتشنج عضلاته، كائن معذب، وكأنما به مس شيطاني. وتارة أخرى هادئ كشبر لم تطأ أرضه قدم إنسي أوجني من قبل. كل يوم يعتزم الهروب من هذه الشقة ومنه الهرب من هذا العذاب، لكنه بطريقة ما يعود اليها في كل مرة، ومهما كانت المسافة التي يقطعها في النهار، فلابد لليل أن يجده بالشقة، دون إدراك منه يأخذه الطريق الى هنا، وكأنه كل الطرق تؤدي الى هنا، وكأن الشقة نقطة بداية ونهاية كل المسارات. يحصل في بعض الأحيان يظن أن جل ركاب

القطارسيعودون معه، لكن قبل أن يعد الأربعون يلتفت فلا يجد أحدا. عندما يلتفت لا يجد حتى ظله يتبعه.

نكره الوجود ولعبت به النو ايا، يعيش محاربا السراب، يجري بدائرة فارغة، موهما أنه خط مستقيم يؤدي لنهاية مسالمة، ولا يعلم أين ومتى يلتف الخط ليعيده لنقطة البداية.

ما زال الظلام يلتهم الشقة، وما زالت الخطوات مسموعة، لكن احتكاكها ما عاد بالأرض بل بات طائرا في الهواء. فليس للهواجس والوساوس أقدام فقط، فكذلك لها جو انح تضرب العقل وتطيرفي الفراغ، وما كان النعت بأن لها اقدام الا ضرب من مجاز، فلربما للهواء حجر وللأجنحة نعال.

كل ما خيل يكتب وكل ما كتب يقرأ وكل ما يقرأ يخيل، فعقلي ليس سجين منطق وما عقولكم بسجينة منطق، ولو كانت كذلك ما وصلت لهذا الحرف ونوت إكمال هذه الحرب النفسية القائمة داخل هذه الشقة المشؤومة. ما

زال المعذب يترنح متكئا على الحائط ناظرا لسريره، سائلا نفسه:

"أ سأنام الليلة؟"

يقف معتدلا ويعقد العزم على أنه سيرتاح اليوم، اليوم سينام، يتجه نحو سريره ويرتمي، يحاول النوم لكن عينه تأبى أن تنغلق.

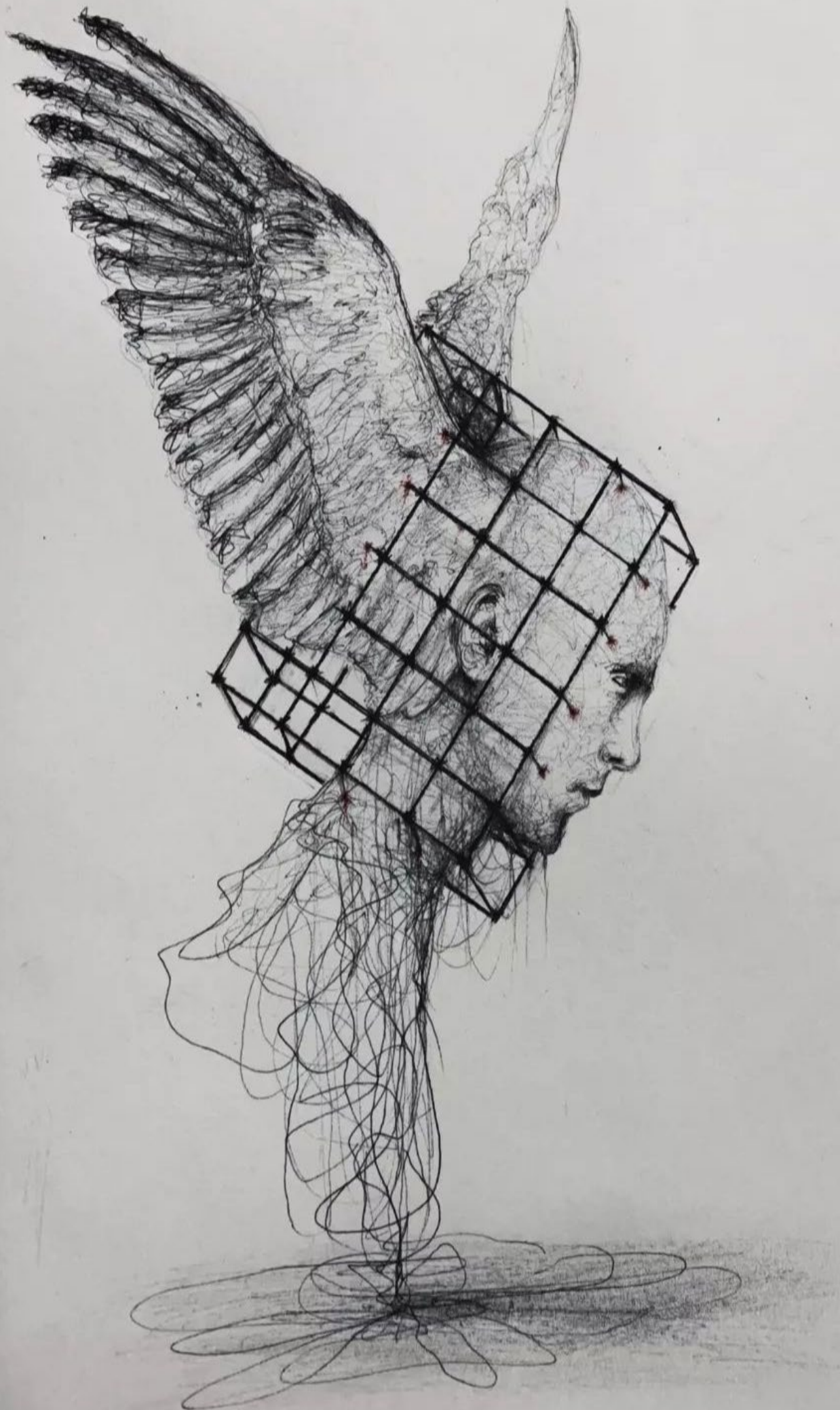

*

أجنحة غراب تضرب بتفاخر عنان الشقة، متكئ على سريره أطفأ أخيرا حاسة البصر، لكن جل حواسه الأخرى ما زالت مستيقظة، تتبع أذناه الصوت محاولة تتبع حركة الغراب، وشعيرات وجهه تتحسس الريح المنبعثة من ضربات الجناح، أما أنفه فيشتم رائحة النار ورائحة فاكهة نتنة. ينام راصدا الغراب وفجأة تنكمش أذنه ومعها تجاعيد جبهته لما اقترب صوت الغراب أكثر. حاول المعذب القفز من فوق السرير والهرب بعيدا، حاول فتح عينيه لكن لم يستطيع، وكأن جموع الجان تترسب فوق جسده المدفون، وعيه فقط الحي، ولك أن تتخيل كيف لذلك الوعي أن يحاول المجاراة بين الإدراك والعجز.

أحط الغراب فوق رأسه، وبدأ في نقر عينه قصد فقئها، كبيضة أم قليلة الحظ جمعها القدر مع منقار ظالمها. جسده مخدر شبه ميت لكنه وعيه يحس بالألم الشديد، وحده الألم من أعطاه القدرة لنفض الجن من فوقه

والانتفاضة من فوق سراره. تحسس بيده عينه فوجدها ما زالت في مكانها، غير مصدق يتأكد بأنامله العشر حتى كاد أن يفقأ عينه بنفسه. ما زال الغراب الأسود مستقرا فوق رأسه وبكلتا يديه نفضه من على رأسه. ضرب الغراب بجناحيه قاطعا الغرفة بهالة مظلمة، ليحط فوق الشماعة. ظل المعذب محدقا في الغراب غير مصدق. ينظر إليه الغراب بدوره ومرة مرة يحرك عنقه لكن عينه الحمراء الجاحظة تحدق بالمعذب فقط.

توجه نحو الغراب يشير بانفعال بكلتا يده لعله يبت الرعب بقلبه الاسود، ناس أنه ليس للغراب قلب. يأبى الغراب الحركة ويظل يحدق فيه بجمود ما عاد حتى يحرك عنقه. في كل خطوة له للأمام يعادله اثنين للخلف حتى خيل له أن الغرفة بدون جدران وليس لها حدود، وأن هذه اللعبة التي يحكمها الخوف لن تنتهي.

ثم نظر نظرة أخيرة للغراب والتف قاصدا مرقده. لاحظ وجود ورقة مرمية بجانب سريره، ورقة غير منكمشة كانت

فوق صدره قبل أن ينتفض و اقفا. لم يعر الورقة الاهتمام لكنها تأبى التجاهل، هكذا تهب ريح خفيفة فجأة من النو افذ المغلقة بإحكام، رغم أن النو افذ مغلقة الا أن الستائر تتطاير بفعل الرياح، رياح أتت من المجهول تهز الورقة من على الأرض وترميها على وجهه.

يداه مرتخيتان على طول دراعه، وكتفه كذلك مسترخ من مكانه، بدأ المعذب يصرخ والورق تغطي وجهه الباكي، وكأنها منديل بدأ الريح يلعب بها على وجهه ثم أسقطها فوق كتفه وكأنها باتت تطبطب عليه مواسية له، ثم تتوقف الريح فجأة كما جاءت وتتوقف الستائر عن الحركة، وتسقط الورقة على يده هذه المرة بفعل الجاذبية.

صاح الصوت من داخله:

"غصبا ستقرؤها".

كف عن البكاء، استسلم مرة أخرى، حياته كلها استسلام. حمل الورقة ولم يدقق فيها لأنه يعلم مسبقا أنها مأخوذة من مذكرته، وأنها بخط يده وبمداد قلمه. يعلم أنها ليست كلماته لكن بطريقة ما هو من كتبها.

بدأ يقرأ كلمات الورقة بصوت مرتفع وتارة يلتفت نحو الغراب الأسود كأنه يقرأ الكلمات له. لكن الغراب في فتور بدأ يضرب بجناحيه. أحمق يقرأ للغراب ولا يعلم أنه في الأصل من الورقة قد انبثق.

***

نادیني وسط النیام إن مت

نادیني من قبري ومرقدي

وقطري دمك على شاهدي

تدب الروح في یدي قبل قلبي

فتغرس بالتابوت الكائن أنا فیه

وتنبش التراب المكدس فوقي

ثم تتحرریدي لتضرب الهواء

منادية الغربان السوداء المنتظرة إشارتي

الغربان الساكنة بشجرة الزقوم القائمة بجوارقبري

فتتجمع جموع الغربان مكونة سحابة سوداء

حتى في ظلمة الليل بادية للعيان

بادية للأرواح الميتة في هذه المقبرة

مقبرة النسيان

تتجمع الغربان وتسقط من السماء على الأرض

سقوطا حرا بمنقارها على قبري

لتزيل التراب المكدس فوق جسدي المحفوظ

سمفونية سحر أسود

طقوسها صوتك وقطرة من دمك

قبل أن أموت روضت الغربان السوداء

وباتت جيشي بعد الممات

فهكذا تتحرر روحي من لعنة التابوت

و أقوم قائما من باطن الأرض لم يمسسني دود ولا جان

ثم تتشقق السماء ويسقط صولجاني

فتعود الغربان وراء الطبيعة تنتظر أوامري

وأنا أقبل لأقبل ساحرتي الشريرة

ثم تهمسيني في أذني

الانتقام.

***

يقبض الورقة بكل قوة ويرميها بدقة فوق جبل الأوراق المتراكمة بالسلة، يخاطب الجدران هذه المرة بعد اختفاء الغراب الأسود.

"ما هذا المرض ما هذه السوداوية القاتمة؟ وأي قبر يقصد؟ تبا لليد التي تنصاع لهذا العقل المريض. إن لم أستطع منع هذا العقل المريض عن كتابة هذه الكلمات المشؤومة، فإذن سأبتر عاهرته التي تكتب كل أفكاره، سأبتر يدي الرخيصة لكيلا تكتب شيئا بعد هذا"

لكي يجد نفسه بالمطبخ يتوجه نحو المرحاض، لكن لا ألاعيب اليوم. هكذا يجد نفسه بالمرحاض فاضطر أن يعود متثاقلا مخافة أن يصطدم بالحائط، لكن الباب لا يلعب لعبته أيضا اليوم.

يبحث في رفوف المطبخ عن سكين فلا يتأخر في البحث، فكل الرفوف والخزائن باتت مملوءة بسكاكين وسيوف

حادة، وكأنها تنتظر قدومه وقد أعدت نفسها له، تنظر إليه وتناديه بلهفة بأن يحملها ويقطع يده بها.

بدى له أن السكاكين تهمس لبعضها "من السكين المحظوظ الذي سيرتوى من دم المعذب؟"

لما تراءت له فكرة أن كل شيء معد مسبقا، وأن طقس جلد يده أعد قبل حتى أن ينوي تقطيعها، هلع وجزع ثم تراجع للخلف وإذا به يصطدم بالحديد، لما التفت وجد أن الحائط علق فيه العديد من السكاكين بشتى الأحجام والأشكال كلها مختلفة لكنها تشترك في الحدة واللمعان. التف حول نفسه فوجد أنه بات محاصرا بأربعة جدران كلها ممتلئة بالسكاكين والسيوف.

هلعه المنظر ثم انطوى على نفسه، ثم غرز سبابته بقوة داخل أذنه لما أشتد عليه ضجيج المعدن الحاد، كل السكاكين تصرخ "أنا، أنا، لا بل أنا جد حاد".

من بعيد سمع ضرب جناح في الهواء، بدا له أن الصوت آت من بعد آخر. وإذا بالغراب الأسود يخترق الجدران عابرا وسط السكاكين، ثم يحط فوق كتفه وينظر لعيناه مباشرة، لا يفصل بين عينيهما سوى شبر، وكأن الغراب يبعث من عينه الهالة السوداء لتهدئة المعذب. يعلو نعيق الغراب مسيطرا على المكان، لتختفي جل السكاكين وتعود الرفوف لمكانها ويعود المطبخ لحلته المملة العادية لرجل أعزب. يقف المعذب ليشكر الغراب لكن الغراب كان مسبقا قد اختفى.

ذكره حضور الغراب بما كتب على الورقة، تذكر الناسك المدفون بالقبر المشؤوم والساحرة التي تنقذه. راودته فكرة أنه هو الناسك المدفون وأن القبر المشؤوم هو شقته الملعونة، هكذا عليه أن يبحث عن الساحرة التي ستنقذه.

بدأ بجنون يبحث عنها داخل الشقة لعلها تكون قد انبثقت من الورقة كما انبثق الغراب. وما عزاه أكثر وشحن همته صوت ضحكات حلوة فجأ بدأت تزور الشقة، يحاول رصد وتتبع مصدرها لكنها تأتيه من كل الاتجاهات كوحي خاضع. يبحث بكل إصرار ويبحث، رغم أنه لم يجد شيئا، ورغم أنه في الأصل يعلم أنه لن يجد شيئا ظل يبحث الليلة كلها. أنس للضحكات فخاف أن يتوقف عن البحث ويتوقف معه الصوت الحلو المنبعث،

أسعدته فكرة أن الفتاة تلعب معه لعبة الغميضة، وما أسعده أكثر أن الوقت الذي قضاه في البحث بين الأثاث الملموس أبعده عن الخلوة ولهاه عن البحث داخل عقله

المحسوس. هكذا ظل يبحث دون كلل ولا ملل، وفي كل مرة يرفع نفس الكرسي نفس المائدة نفس أي شيء ويقول:

" آه لقد نسيت البحث هنا".

معذب هو، يأنس ويفضل الكذب ولو كان عنده مكشوف على العذاب داخل الحقيقة.

ظل يبحث حتى أطل الصبح وبدأت خيوط الشمس تتحرش بستائر نو افذه. لما رأى نور الصبح غطى السماء انشرح صدره كأنما نزل عليه وحي شاف. هم يزيل الستائر ويفتح النو افذ تاركا أشعة الشمس تعبر من خلال جسده، يغتسل بنورها ويدلك وجهه بكلتا يديه، يترك ضوء النهار يطهره ثم يرتمي فوق سريره باستسلام.

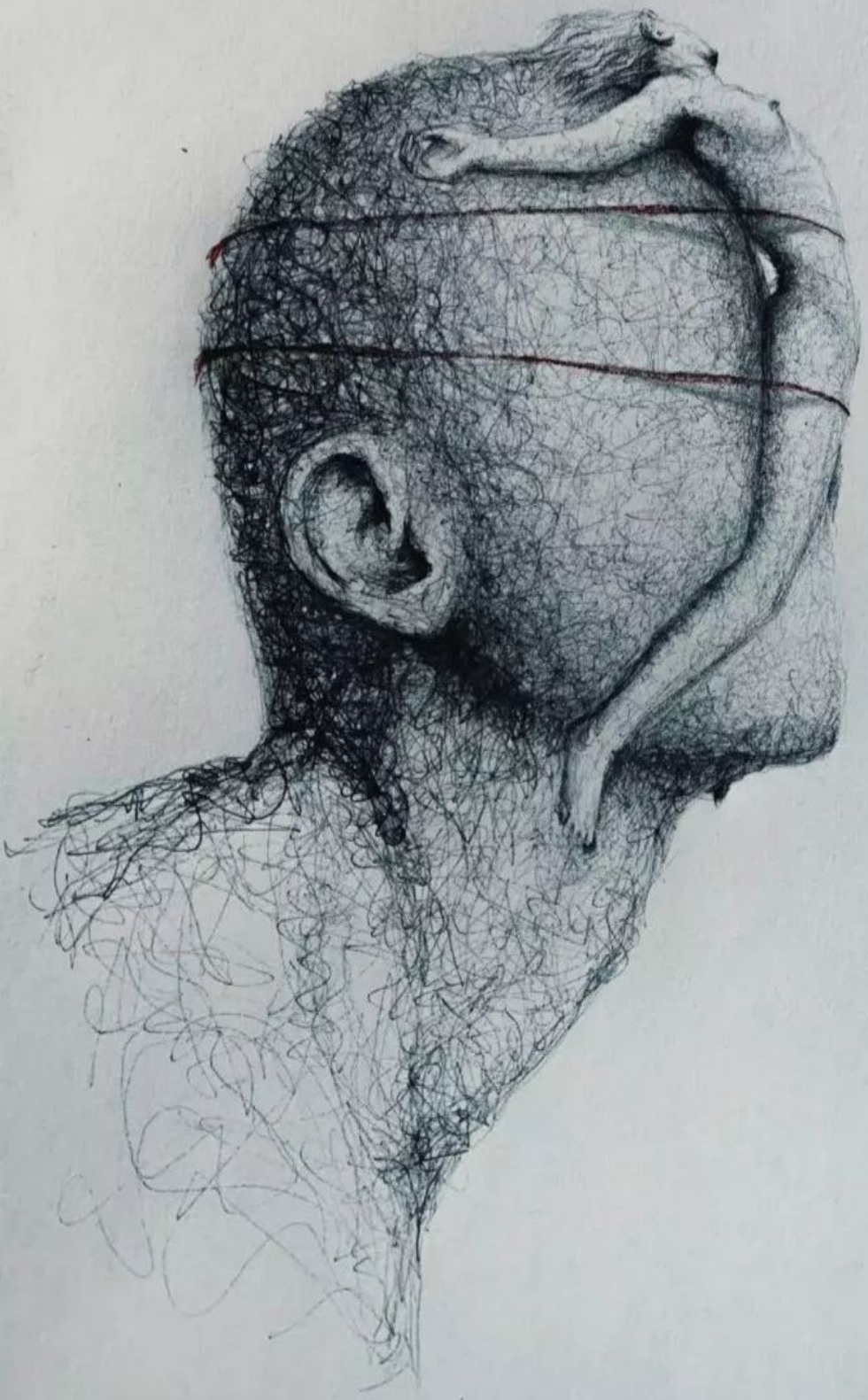

*

إنه الليل يلقي بظلاله على المدينة البائسة، أتى بجبروته منتصرا على النهار ليعم الظلام. لكن ما الغد ببعيد. قرأ يوما في كتاب عن أرض لا تغرب الشمس فيها، أرض كل أيامها نهار، شمسها دائما ساطعة في الأفق، ولو أنها دائما بيضاء لا دفئ ولا حنان ينبعث منها. هام في حب تلك الأرض وبكل شغف حمل متاعه وهم بالهجرة إليها، لكن للأسف كل الطرق تعيده لهذه الشقة المشؤومة.

ينتظر بفارغ الصبر نور الصبح، ليعلن عن هدنة بينه وبين هواجسه المجنونة ووساوسه المريضة. أتى الصبح أخيرا، ارتمى المعذب شاحبا لم يغفو له جفن من أيام ولن أبالغ إن قلت شهور.

ارتمى فوق سريره فنام. أوليس الصبح قد أتى؟

لكن بعض مرور بعد ثوان أيقظه نباح كلاب، نباح ملح ينبعث من الزقاق الخلفي. يعلم أنه النهار. تقلب لجنبه

الآخر وفتح عينيه ولما دخل نور الشمس عينه ازداد طمأنينة، حمل الوسادة التي بجانبه ووضعها فوق أذنه محاولا كتم صوت النباح. لكن النباح يأبى الكتمان بل يزداد صخبا. يفتح عينيه من جديد فيلمح أن النافذة مفتوحة، يخاف أن يغلقها فيعم الظلام، وتفقد الشقة مباركة الشمس، وتفقد الرقية الو اقية من مس الظلام. نهض من على سريره ثم توجه الى النافذة وأطل، بدأ يصرخ في الكلاب لعلها تخرس، لكن صراخه فقط زادها نباحا.

ازدادت شراسة الكلاب لما لمحت شاب انعطف داخل الزقاق مقبل عليها. يخطو الشاب نحوها بخطى ثابتة رزينة، ثم يجلس على الأرض قبالة الكلاب. فجأة وبدون سابق انذار، تكف الكلاب عن النباح ويعم الزقاق سكونا مخيفا. بدورها تجلس قبالة الشاب. ير اقب المعذب المنظر من نافذته فرحا أن الشمس من تغطي السماء وهي من

تكفلت بهذا السلام والهدوء. انه النهار إذا هواجسه ووساوسه في سبات.

يحاول صاحبنا العودة الى الداخل لينام، لكن تحرك الشاب أخيرا محركا فضول صاحبنا، ففضل أن ير اقب ماذا سيحدث. وهو جالس مقابلا الكلاب يطوي الشاب ملبسه كاشفا عن دراع بيضاء غليظة نوعا ما بها قليل من شعر ذكوري وشحم بشري، منظر عادي لا شيء شاد حتى الآن فالشمس في الأفق تتكفل بالأمر. ير اقب من النافذة كل شيء ير اقب حتى أعين الكلاب كيف تنظر لدراع الشاب واللعاب يسير من فهما، لكن ذلك شيء عادي مجرد كلاب. ثم يمد الشاب بهدوء وسكينة كلتا دراعيه ناحية الكلاب، وكأنها إشارة منه للعناق، تقف الكلاب وتتجه نحوه. يخيل لصاحبنا من على النافذة أن الكلاب ستعانق الشاب، لكنها تبدأ في نهش دراعه وتمزيق اللحم من عظمه، تبدأ كلاب الزقاق الخلفي في أكل الدراع بكل شراهة وبهدوء كأنه لحم خروف ميت ملقى بركن قذر.

يضل الشاب طواعية مادا يده وملامح التألم تعلو ووجهه، صراخه يكتم بحنجرته لا يتعدى فمه لكيلا يعكر صفوة المكان لكيلا يزعج وليمة الكلاب. أي جنون هذا يصرخ المعذب من النافذة بهستيرية وغضب غير مصدق ما يحدث:

"ما الأمر؟ فقط لوهلة كنا لطفاء مسالمين، انه النهار ما هذا الجنون؟"

تتلاق عينه بعين الشاب، ثم يبتسم الشاب فرحا لشيء ما هو جاهله. ما زالت الكلاب تنهش اللحم الطري، ولما نفذ اللحم مرت الى العظام تكددها. فجأت يقف الشاب على قدميه فتتوقف الكلاب بدورها عن المضغ. نظر نظرة أخيرة في عين المعذب الجاحظة الغير مستوعبة لكمية المرض والشدود المتمثل في الصورة التي أمامه، منظر الزقاق الخلفي ووحشية الحياة.

شاب يطعم الكلاب طواعية من لحمه، والكلاب تلتهم وكأنها معتادة على اللحم البشري الدسم والدماء الساخنة

الحية. يخطو الشاب للخلف عائدا، يمشي نحو الشارع والدم يتدفق بغزارة من على كتفه، ويداه مبتورتان تهضم بمعدة الكلاب.

تتبع المعذب الشاب بعينه حتى انعطف واختفى، ولما أعاد ناظريه ناحية الكلاب وجدها تنظر اليه نظر شهو انية مفرطة. قفز من مكانه للخلف هلعا غير مصدق تلك النظرات، ثم أغلق النافذة بقوة وأزلق الستائر الغليظة القاتمة لتحجب عنه نور الشمس.

هكذا ما عاد مفركالليل كالنهار، شب الورم في حياته كلها، ورم الجنون والشدود. ما زالت أعين الكلاب تتربص به في عقله متجذرة. يسير ببطء شديد نحو النافذة ويرفع طرف الستائر. إنه الليل بات الزقاق الخلفي مظلما، الرؤيا مظلمة جدا لا يرى شيء أمامه حتى المصباح الهرم الذي كان يضيء الزقاق قد عمي وأطفأ نوره، لا يوجد شيء أمامه وكأن جدارعملاق صبغ بأسود حالك ملصوق بالنافذة، جدارمرسوم عليه سماء سوداء مرصع بنجوم وقمرأحمرمكتمل. لأول مرة يأنس المعذب للقمروالنجوم، إنه الليل أنجاه اليوم من أعين الكلاب. أغلق الستائرثم عاد لسريره فقط من أجل أن يتكئ يعلم أنه لن ينام اليوم أيضا. عاد لسريره فلم يجده في مكانه، وقف يحدق في الزاوية الفارغة لساعة. إنه الليل.

*

إنه الليل بظلام سمائه وظلام نفوس البشر فيه، إنه الليل وجد ليكون سبات يوم طويل من الإرهاق البدني والنفسي، وجد للنفوس العاملة ليكون لها راحة وسكينة.

لليل أيضا ظلال، فليس النهار وحده من يعكس للناس ظلالا، إنما لليل أيضا ظلال، تعكس على الأجسام من مصابيح الشوارع ومحلات الهوى. وجد الليل ليكون سباتا والنهار معاشا، وحدها الأرواح المبعثرة من تقلب الآية.

يحدق المعذب في الزاوية حيت كان يرتمي جثة هامدة مفتوح العين، ولأنه هش متكسر اشتاق لسريره رغم أن له أشواك.

يتربع على قمة الأرواح المبعثرة، إن كانت آية النهار والليل تعكس عند بعض الناس، فهو ليس له آية، لا ينام ليلا ولا نهارا. يقرر هذه الليلة ألا ينصاع لهواجسه ونفسه المريضة، قرر الخروج من الشقة الى العالم والتسكع، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها بالليل.

يمر بجانب المذكرة وبحركة عفوية يحملها ويضعها خلف حزام سرواله، لا يعلم لما حملها ولما كان لا يعلم سبب وجودها أصلا، قرر ألا يدقق في الأمر. رأى الهاتف مرميا فوق الأريكة فلم يعره الاهتمام، لكن الهاتف أضاء جادبا اهتمامه أكثر، كأن الهاتف يشتاق أيضا الاحتكاك بقماش سرواله. هكذا يضعه بجيبه مقررا أنه لا ضرر في ذلك.

جر باب الشقة دون فتحه فوجده مغلق بإحكام، رغم أنه هو من أغلقه إلا أنه تعجب كيف أنه لم يفتح طوال اليوم. لكن اليوم وبالذات وجد الباب مغلقا وكأنه بات مدخل سجن له إرادة خاصة، أغلق نفسه على مالكه ليعذبه.

تذكر المعذب أنها أول ليلة ينوي فيها الخروج، تردد قليلا لكن عندما التف عائدا ولم يجد السرير عقد العزم على الخروج.

فتح الباب بانفعال وغضب، خرج الى الرواق المظلم، كل المصابيح على طول الرواق مظلمة الا مصباح واحد، مصباح باب شقته. وكأن المصابيح تفدح نوايا أصحابها،

فكل الجيران نيام فكذا مصابيحها، الا هو مستيقظ فكذا مصباحه. مصباح يتربع فوق باب شقته نوره عكس ظل المزهرية الموضوع بجانب الباب الفارغة من الزهور، مصباح عكس ظل كل الأجسام التي يمر بها الا جسد صاحب الشقة لم يعكس له ظل. لما لاحظ المعذب ألا ظل له، التف حول نفسه هلعا باحثا عن ظله لكن لا ظل، كأن النور يخترقه دون أن يحجب.

قبل أن يجن جنونه قرر الهروب بسرعة، ورغم هروبه لم ينسى عد الدرجات الأربعون وهو نازلا يخبط حجارتها بقوة وجنون. انفصام، هاربا يعد عقله عدد الدرجات تلقائيا، والعدد كالمعتاد أقل من أربعون.

وقف عند عتبة العمارة ينظر للخلف، يفكر في كل شيء، زوبعة أفكار تعصف بعقله المريض بروحه المسكينة. أيفكر بالشاب والكلاب؟ أيفكر بالعذاب والشقة المشؤومة؟ أيفكر بالورقة المكتوبة بأيادي مجهولة؟ أيفكر بالظلال وألا ظل له؟ أيفكر بعدد الدرجات الأربعون؟

التف نحو الشارع وبكى.

أم يفكر في الظلام الذي يبتلعه؟

إنه الليل يلقي بظلاله على المدينة الموحشة، لطالما قرر الهجرة الى الريف لكنه يدرك أن للريف أيضا ليل، يقول مع نفسه أنه على الأقل ليس له مصابيح وليس له ظلال فكله ظلام.

يسير بالرصيف معذبا يفكر في الرواق وكيف أن ليس له ظل، يسير وقصدا يتحاش أعمدة الإنارة. جل المحلات مغلقة وجل المساكن معتمة، انه منتصف الليل، حيت الكل نيام وحيت تستقر الشمس من الجهة الأخرى للأرض. حيت هناك ظهر وعصر لذا قوم آخرين. يبتسم لما سهى في فكرة لو كانت له قوة خارقة وبها يستطيع السفر عبر الزمان والمكان في طفرة عين، استحلى الفكرة وحده نور سيارة متجهة نحوه من أيقظه، وما زاد إيقاظه ضاية ماء عكرة تناثرت عليه قدارتها لما مرت السيارة بعجل فوقها بدون اكتراث، وكأن السائق يقول له عد لشقتك، وكأن المدينة تقول له غير مرحب بك.

يكمل طريقه متعثر الجوارح، يمسح قطرات الأسى من على وجهه المبلل القدر بكمه المتسخ. في طريقه يمر بزقاق، يلتفت نحو الزقاق فيلمح ظل يتحرك، أمعن النظر أكثر في الركن المركون داخل الزقاق، لمح متشردا نائما في سبات هانئ، يفترش الأرض ويلتحف السماء، يتوسد عتبة منفصلة وحيدة عن باقي الرصيف. لما اكتشف أنه متشرد تحاشى الإمعان فيه، اشمأز لقدارته لعنه في نفسه وكره بدون سبب، ثم هم بالابتعاد عنه.

شخير طمأنينة، شخير راحة أطلق من فم المتشرد النائم، شخير استحال أداة نداء، استجاب المعذب للشخير، التفت مصدوما من الشخير المنبعث من هذه الحشرة المستلقية على الأرض، أخده الفضول عائدا إلى المتشرد يتفرس قسمات وجهه النائم، يتعجب كيف أنه ينام بطمأنينة مطلقة لا هموم معذبة ولا نوايا مرهقة، يشخر على الفقر، يشخر على عدميته، مرتاحا رغم أنه نكرة.

تعتريه غيرة قاتلة، يسأل نفسه:

" ما الذي يملكه هذا المتشرد ولا أملكه أنا؟"

أراد بشدة ايقاظه وسؤاله عن سبب راحته، لكن الطريق من تحته أخده مغرما خارج الزقاق المظلم، خرج بكل حواسه الى الشارع وكان سمعه آخر الو افدين.

التفت يمينا ويسارا لا سائرا يسير ولا عجلات تطير. وقف ساعة كاملة يقابل الشارع ينتظر مرور عربة ما لكن شيئا لم يعبر، هكذا سارع الخطوات إلى منتصف الشارع عند ملتقى ثماني طرق، ثم اتكأ على ظهره محدقا في السماء. سماء ليل كئيب حتى هي تشاركه كآبته، اختفت النجوم والقمر سماء خاوية. انفجر بالضحك وهو متكئ على ظهره ناظرا نحو السماء باكيا، لما أدرك قبح العالم الذي يعيش فيه ووحشته، منذ ولادته لم يرى جمالا، حاول تذكر يوم

واحد عاشه في سلام، ليلة واحدة فقط نام فيها بطمأنينة وأمان، فلم يجده.

يوما واحدا فقط لم يسأل فيه نفسه.

"أسأنام الليلة؟"

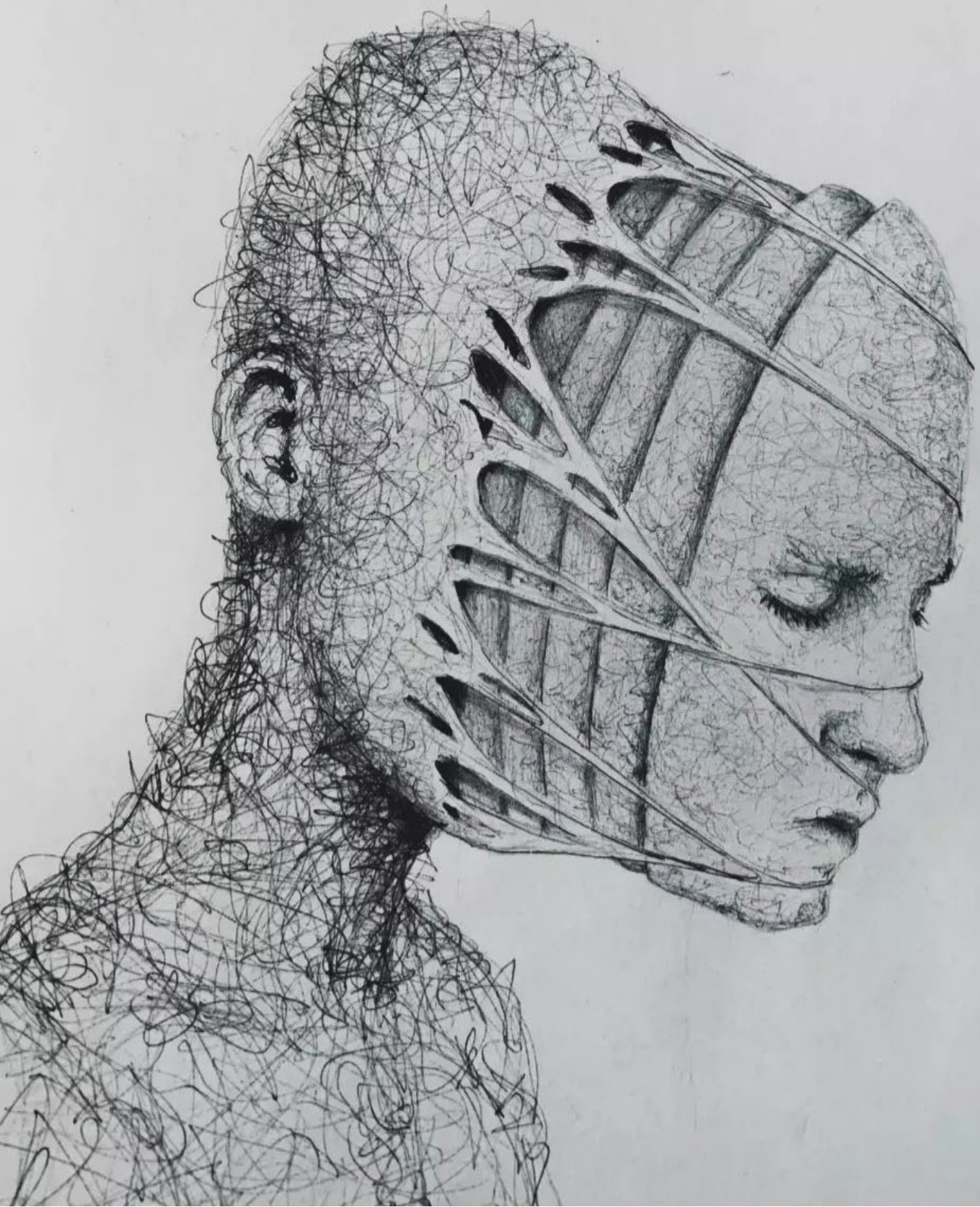

هو الابن الوحيد يتيما لوحده، حتى اليتم لم يشاركه معه أخ، حاول تذكر كيف ماتت أمه لكنه نسي، ثم أباه لكنه نسي، يعصر ذاكرته لعله يتذكر لكن لا ذكرى. معذب هو، قلبه يتذكر كيف ماتا ويعصر قهرا، يتذكر الشعور والاحساس، كل حواسه تتذكر الحدت، حتى عقله يتذكر متى وكيف لكن الصورة لا تظهر على شريط ذكرياته، مهما تذكر تدل الذكرى هناك بمكان ما في عقله الباطن مكبوتة فقط الإحساس بها من يطفو.

تخيل معي أن تتذكر الماضي جيدا لكن حاضرك يأبى استحضاره. وهذا هو حال صاحبنا، مع كل هذا يبكي دموع استسلام وسلام، يؤمن أنه مهزوم مكسور، وأن القدر يلعب لعبته.

يستحلي برودة الشارع، يفترش تشويرا أفقيا لعلامة قف، توقفت جل أفكاره، يتذكر المتشرد فيحاول النوم والشخير لكن هيهات فالليل ما زال قائما.

عيناه جاحظتان مفتوحتان كأنها تر اقب مشهدا مرعبا، حتى محاولته بأن يرمش لا تنجح، وكانت صورة السماء الكئيبة التي أمامه كفيلة بأن يدرك أنه من المستحيل أن ينام.

خواء نفسه يعانق خواء السماء، والشوارع الثمانية فارغة، وضعت عند مداخلها حواجزلتدعه في منتصفها نائما.

سقطت المذكرة بجانبه لتذكره بوجودها، حملها وبدأ بتقليب أور اقها الخاوية، يقلبها كأنه يبحت عن شفرة الحياة، وصفة سحرية تنقذه من عذابه، تتوقف أناملة عن الحركة عند ورقة يعتريها مداد أسود خط أرقام هاتف تحتها اسم بحروف غليظة "أبي".

يعلم أنه لا يوجد لا سلكي بالقبورولا يوجد رصيد عند الموتى. رغم ذلك يحمل الهاتف ويضرب بهدوء على مفاتيحه أول رقم ليظهر الرقم محفوظا كاملا بالهاتف، ومع ذلك يكمل ضرب الرقم بهدوء حتى آخره.

يجلس معتدلا مدركا أن لا أحد سيجيب الا أنه يعتدل محترما حرمة الموتى، ثم يتصل.

يرن الهاتف، كان ينتظر أن يقطع الخطأ لكنه يرن، يفرح أن الهاتف يرن في مكان ما على الأرض البشرية.

هلعته فكرة أن رقم أباه يرن و أنه ستكون هناك استجابة من كائن ما، هكذا لأول مرة يقطع الخط طواعية.

منفعلا وبسرعة يقطع الاتصال، قطع الخط لكن صدى الرنة ما زال يضرب طبول أذنه، وهزات الهاتف ما زالت تضرب أسفل قدمه. يحمل الهاتف ويداه ترتعد، عقله يصرخ فيه:

" اتصل أيها الجبان، هذا ما كنت تنتظر، كنت تريد أن يرن الهاتف ويحيي الموتى. إذا اتصل"

ينهض من على الأرض، عاقدا العزم بأن يتصل، ثم من العدم يكتض الشارع بالسيارات والدراجات، كلها تصيح ببوق واحد، ابتعد أيها المجنون من وسط الشارع.

يركض مبتعدا، يلج أقرب مبنى يقابله، ثم يصعد درجاته دون وعي الى السطح.

ما زالت الأبواق تتبعه، يقف عند حافة السطح ويطل، لكنه يصدم. لما أطل وجد الشارع فارغا لا حركة فيه فقط هدوء تام، نفس الهدوء الذي وجده قبل أن يستلقي فوقه. وكالعادة لا يدقق في هذا الجنون.

وهو و اقف على الحافة يأتيه الشيطان على صورة فكرة " اقفزلينتهي كل شيء".

خاطره يعجب بالفكرة، عقله وجل حواسه تقرر القفز والانصياع للشيطان، لكن أطر افه تجمدت دون انصياع، رجله تأبى الموت، يدرك جسده أنه فاني لدى لا ينصاع للروح الخالدة. بل بالعكس ينقذه جسده كملاك وبدون أمر من العقل يهرول إلى الخلف.

يصطدم ظهره بالحائط ليعود الشيطان الى الجحيم ويعود عقله اليه، عقل خاو لا وعي ولا نبوغ فقط هواجس مجنونة يوما ما ستقتله.

يتحسس المعذب الهاتف بيده ويتذكر رناته، رفعه وبدون تفكير يضرب الزر الأخضر مرتين ليرن الهاتف رنة طويلة، تو اني أحس بها ساعات.

*

صوت ما عهد سماعه في حياته كلها، صوت من عالم آخر من جنس يعاكسه، صوت فتاة رقيق يقشعر له بدن كل بالغ، يجيب:

ألو

ألو

اسمي شفاء

و أنا اسمي مريض

إذن سأكون أنا شفاؤك

أخاف أن أكون أنا مرضك

عد الى البيت وسنحدد ذلك.

ثم يقطع الخط من الطرف الآخر للعالم.

مسرعا بدون هواه ينزل السلالم، ثم يقف فجأة عند الطابق الأول للعمارة، يقف لما لمح بطرف عينه المزهرية الفارغة والمصباح المضيء بشغف، يقف عندما لمح باب شقته. متأكدا أنه لم يصعد العمارة التي يقطن فيها، بل أنه قطع مسافة طويلة مبتعدا عنها، لكن باتت لديه مناعة من نوع خاص، هكذا كالعادة لا يدقق في الجنون.

فرح أول مرة لقصر المسافة، فرح لمنظر الباب وهو يفتح نفسه أمامه، سعد لهمسات الصوت الرقيق التي ما زال تدغدغ أذنه، قائلة" عد للبيت".

توجه نحو باب شقته المفتوح وقبل أن يدخل التفت ناحية الدرج وقال لا ضرر أن أعدها.

ينزل بكل همة والابتسامة تعتريه، يعد وعند عتبة العمارة يجد أن العدد أقل من أربعون، يصعد وعند عتبة شقته يجد أن العدد أكثر من أربعون.

نظر ناحية الباب المفتوح وجلس بجانبه مسندا ظهره على المزهرية، متعب الجوارح ساهيا في ظلمة الرواق. يخاطب نفسه الخاضعة" إذا ما زلت مريضا لا أحد ينتظرني، كل شيء خدعة ووهم".

ظل مدة شاردا في عتمة الرواق، وحدها أعين صفراء تلمع وسط الظلام من أيقظة انتباهه. يخرج من العتمة قط أسود كان ممتزجا مع الظلام، أتاه من الشقة المجاورة. يقترب القط الأسود من المعذب بثقة وهامة ما عهدت بالحيوان من قبل، يمشي متبخترا بجماله وسواده المهيب، يمر القط من أمام المعذب دون اكتراث ويلج داخل شقته، ثم يتبعه المعذب زاحفا.

*

يتمشى القط الأسود قاصدا غير لاهي، يدرك أين يوجد مبتغاه، يمشي على أربع ويتبعه من يمشي على اثنين زاحفا على بطنه. يتبعه صاحب الشقة مرفوع الوعي والادراك فقط يتبعه. لربما الغموض الذي يعتري هذا القط الأسود من جعل صاحبنا يهتدي به ويحدو حدوه داخل الشقة، وحشة كانت تعتريه ورغبة ملحة بالدخول الى شقته لكنه كان ينتظر من يشجعه ويهديه سبل سريره، أتاه المرشد مغطى بفرو أسود عيناه صفراء يمشي على أربع.

قصد القط سلة الأوراق وأسقطها على الأرض وبعثر أوراقها باحثا على شيء ما، أوراق منكمشة تبدو كلماتها مبعثرة، لكن القط بدى أنه يدرك عن أي حروف وكلمات يبحث، ظل يبعثر الأوراق حتى استقر أخيرا بصره الحاد على واحدة، ثم دحرجها بعيدا عن باقي الأوراق، و أتى بها أمام جبهة المعذب الذي كان ير اقب أعين القط اللامع وسط الظلام وهو ما زال مستلق على بطنه، وكأنه مسخ أصابه شللا.

وقف القط الأسود يحدق في عيني المعذب يفصله شبر واحد عنه. ولما كان الظلام يعم الشقة كانت وحدها الأعين الصفراء المهيبة تتوسط الفراغ وتحدق في عينه.

ليست مجرد نظرة، إنها حروف وكلمات تقرأ دون همس، تضرب طبول الأذن دون صخب.

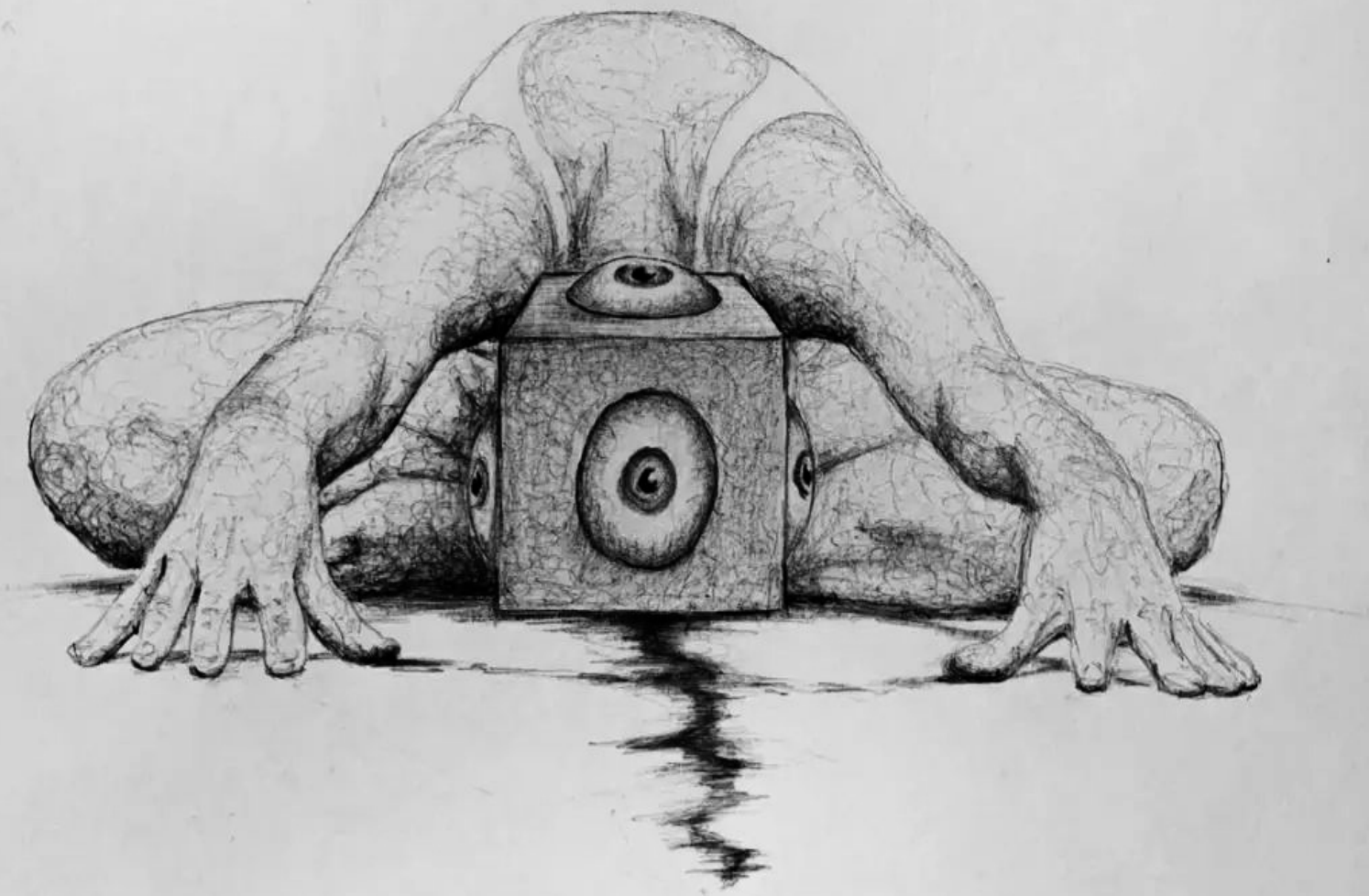

عادت الشقة لخوائها الحقير ولهالتها المنعدمة، لما أدار القط ذيله ضاربا الهواء خلفه، وولى من الباب كما دخل. تبعه المعذب منصاعا لحس العبودية الذي يعتريه فقط رأى في هالة القط الأسود خلاصا، لكن الباب صد في وجهه لما تخطاه القط.

اختفى كل شيء وكأنه لم يكن فقط الورقة المختارة من تشهد على حدوث الأمر، يتكئ صاحب الشقة على الباب ويقول مخاطبا الفراغ:

"ماذا الآن؟"

يسأل دون السعي للجواب، لكن نفسه تجيب بضحكة:

"الآن العذاب"

اعتاد على هذا الصوت هكذا لم يعره الاهتمام ولم يعد يصبه بالهلع كأول مرة، بل أصابه هذه المرة بالهدوء الذي يسبق الحرب.

ليس كل الحروب تخاض بين الكيانات المادية، إن الحروب النفسية أشد وطأة وخسائر.

يجيب نفسه بصوت مسموع، كأنه يعلم أن نفسه تسكن الجدران كما تسكن داخله، وتسكن الأثاث كما تسكن جوارحه.

" لقد رفعت رايتي البيضاء منذ مدة، الا أنك تتلذذين بجلدي، تعشقين مسايفتي ولو أني لست بسياف. إذن الآن سألعب لعبتك".

هكذا يحمل نفسه ويتوجه نحو البقعة التي كان يبادله فيها القط الأسود الرسالة. حمل الورقة المنكمشة من على الأرض، بسطها وبدأ يقرأها.

***

السواد القاتم اللحن الملعون

الشقة المظلمة الدروج المتغيرة

نفوس مقهورة تنتظر أيادي مبتورة

قلوب مجروحة جبرت بتوابل دجال مسحورة

همس النفوس صداها باللوح المنحوس

سخرية زمكان تعييده لهذا المكان

مقدرأن يعذب بأيادي شيطان معذب

حرب الباطن أشد ضراوة من الظاهر

كلمني إن تهت، أنا جارتك ولي لك مخرجا.

رسولي قط أسود فال خير، عيونه صفراء نبأ يقين.

لطالما رغبت فرفعت فاتصلت

فأجابك جن العدم، إن صاحبك لميت.

لكن الآن أنا المجيبة، جارتك إنس الأرض الملموس لأعانقك.

وليس جن الجحيم المحسوس ليعذبك.

كتبتني في منامك، فأتيتك في يقينك.

كلمني إن تهت، اتصل لأنقذك.

جدراننا واحدة

فلطالما أسرقت السمع لطنين نفسك المريضة.

كلمني فأنا شفاؤها وخلاصها.

دائما أحاول شفاءك دون علمك فأفشل.

اعطيني الإذن لتشفى اعطيني كلمة لتحيا.

طلاسم نترتها على عتبتك كزهورلترقيك.

تتخطاها لكن فقط تزداد مرضا.

فأموت أنا خلف الجدران قهرا.

قطي رسول وصوتي سفير

أطعت رسولي فارخي جوارحك لسفيري.

اتصل لأجيب استرخي لتعيش

نطفة ميتة رضيع حي

قرار متخذ حياة جديدة

أستنام الليل؟

لا

لكن ستنام، غدا وغدا وغدا....

****

يقرأ الورقة، وهو متأكد كالعادة أنه ليس هو من كتبها، عقله الغبي غير قادر على أن يكتب كلمات بلسان أنثى، أنثى تدعي أنها جارته. لماذا يكتب إن كان هو من سيقرأ.

يكتب رسالة لشخص، وذلك الشخص هو نفسه، يبعث رسالة لنفسه، ما هذه الهلوسة، ما هذا الجنون. تختلط عليه الأمور لكن تهديه فكرة أن لا شيء غريب على عقل مجنون مثله، لطالما وجد رسائل وروايات وشعر فوق صدره عندما يستيقظ، فلا يعلم أي كائن كتبها وأي أيادي خفية وضعتها هناك.

أعاد قراءة الرسالة مرات ومرات لعله يجد بها شفرة مخفية لعله يجد الجواب. لا يجد شيء فيقرر أن يعاود الاتصال بها، يجلس على الأريكة ويحمل الهاتف وفي حركة تلقائية دون أي سيالة عصبية دون أمر منه تتحرك أنامله فوق لوحة الأزرار، وكأن لكل أصبع عقلا خاص يندمج مع البصمات.

يتصل بالرقم لكن لا أحد يجيب، لا يرن الهاتف الخط مقطوع، المجيب مدفون. يتعجب لكن عندما يرفع رأسه يكتشف السبب.

إنه الصبح.

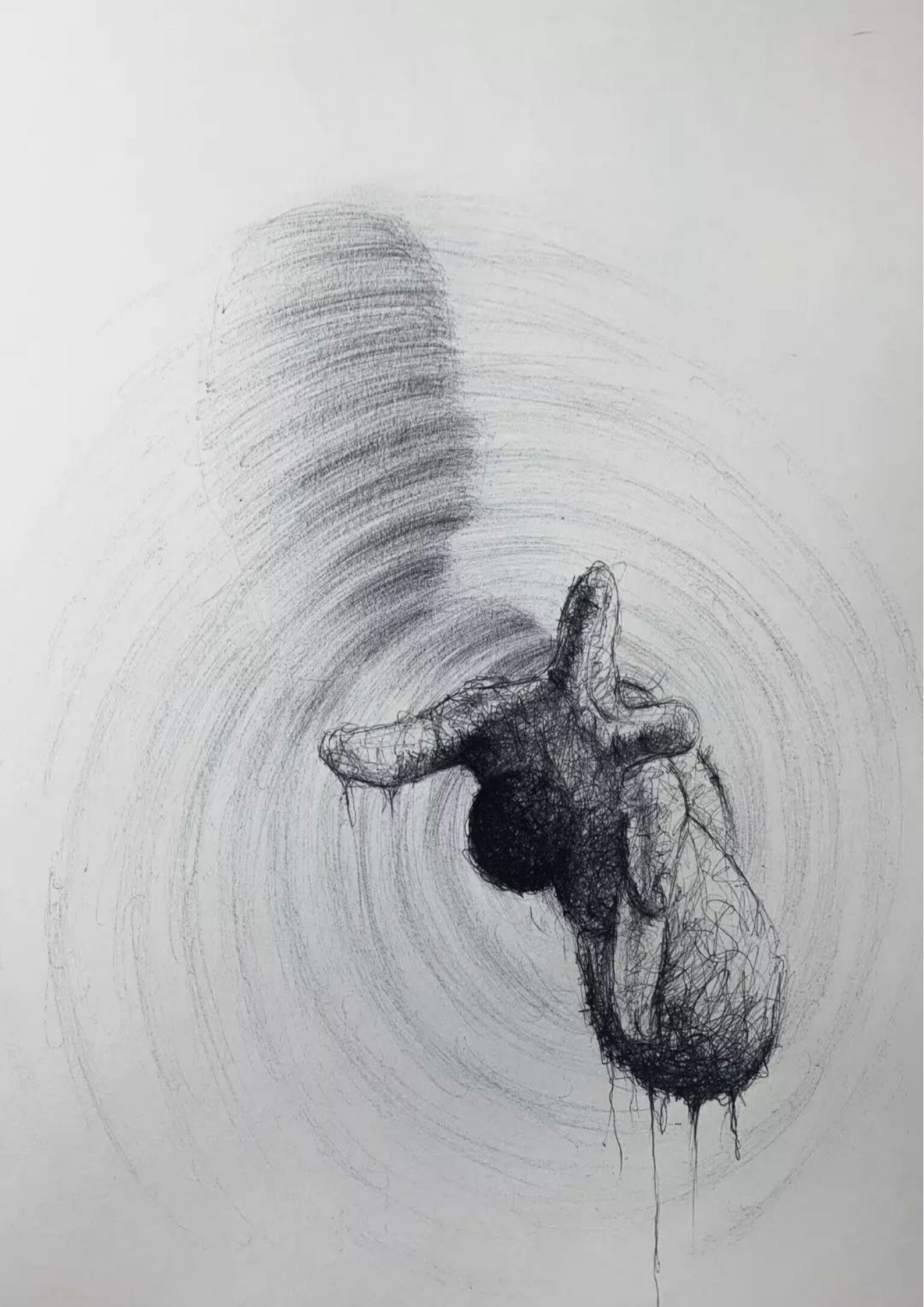

*

قام قائما كغصن شجرة جاف في بقعة قاحلة. أزال الستائر وفتح النافذة، ترك شعاع الصبح ينفذ لينير عتمة الشقة، طاردا المس الذي يعتريها، تبسم المعذب ابتسامة حلو ما عهدها لما داعبه نسيم النهار البارد، لكنه سرعان ما امتعض وأحس بالخوف لما رأى انعكاس ابتسامته على شفاه كلاب الزقاق الخلفي. بدى له وكأنها تبتسم شامتة من حياته، ينظر للكلاب كيف يعلو عيناها العمش ندير نوم عميق قادته عكسه هو. أصبح الصبح واستيقظت لترسم له لوحة العذاب والألم، فسيفساء من لحم ودم، تنتظر فقط مطعمها أن يقبل عليها من الزقاق طواعية بلحمه وعظمه، لترسم تلك اللوحة المعقدة المريضة والمشؤومة.

يعود داخل شقته ليصطدم بسريره المركون بمرقده الدائم، كان يظن أنه اختفى وبيع في مزاد لعني، لكنه ها هو الآن راكن بأشواكه وصوفه الخشن ينتظر العناق.

ها هو بعناده يقول له إن كنت رجلا اعتريني ونم فوقي، يخيل له السرير كامرأة شرسة تتلذذ النشوز، وتعشق الجماع وقتما شاءت هي فقط.

يقفز المعذب فوق السرير ليغتصبه وينام فوقه غصبا، لكن الشوك فوقه يدك ظهره ويجعله يقفز مبتعدا لعنا اليوم الذي اقتناه.

يتذكر المعذب جارته والقط الأسود فيحاول التنصت عليها من الجدران، يضع أذنه على الحائط لكنه لا يسمع شيء في الجهة الأخرى، سكون مخيف انعدام الصوت، لدرجة ظنه أنه أصاب بالطرش. يلصق أذنه على جل الجدران التي تحيط بشقته تباعا، حتى الجدران التي تطل على الزقاق الخلفي لم تسلم من قذارة أذنه. لم يسمع شيئا خلف أي حائط، لا خطى أقدام ولا تصادم أو اني، حتى الكلاب مع عادت تنبح، هذه المرة زادت شكوكه أنه أصيب حقا بالطرش.

أرهقه الشكوك، هكذا قصد باب شقته دون تفكير لأنه يعلم مدى تردده، فتح شقته وتمشى بالرواق قاصدا الشقة المجاورة له، سار بالرواق أمتار ثم أمتار ثم بعضها أمتار، لا أبواب جيران ولا حتى تغور صراصير، الرواق كله جدران، فقط سقف أرضية وحيطان، رواق طويل، يضيئه شعاع خفيف، يبحث عن مصدر ذلك الشعاع، فلا يرى له مصدر.

متأكد أنه فقط الليلة الماضية لمح القط الأسود يخرج من باب شقة ملتصقة لشقته، بل رأى أيضا مصابيح ولو أنها غير منيرة، رآها تتربع فوق رؤوس أبواب الجيران.

والآن لا شيء مجرد رواق طويل لا يحده بصر. أدرك أنه مهما سار بهذا الرواق الموحش لن يجد أي وجود فقط العدم والوهم.

لكن رغم ذلك مشى نحو المجهول قاصدا الفراغ لعله يجد له حدود. مشى أمتارا خيلت له أميالا، أصابه العياء وتعرق بشدة. ضحكة بهستيرية ضحكة مجنون، صارخا في

الرواق، وصرخاته تعود اليه صدى يتكررفي الرواق، لكن بكلمات أخرى.

يصرخ" إنه النهار"

والصدى" الليل، الليل"

"بل النهار"

والصدى" الليل، الليل"

جن جنونه، التف ليقطع تلك الأميال التي مشاها قاصدا الفراغ ويعود أدراجه لشقته، لكن عندما التف عائدا وجد شقته وراءه تماما، وكأنه كان يسيروهي تتبعه، وكأنه أصلا لم يخطو شبرا، وحده العرق الذي يتصبب من جبينه وقلبه الذي يضرب وعياء عضلاته، من دحض الفكرة الثانية. إذا الشقة الملعونة كانت تتبعه، يا لا اخلاصها يا لا وفاءها. أضحكته الفكرة حاول الاقتناع بها لكن ذرة المنطق التي ما زالت عنده منعته من ذلك.

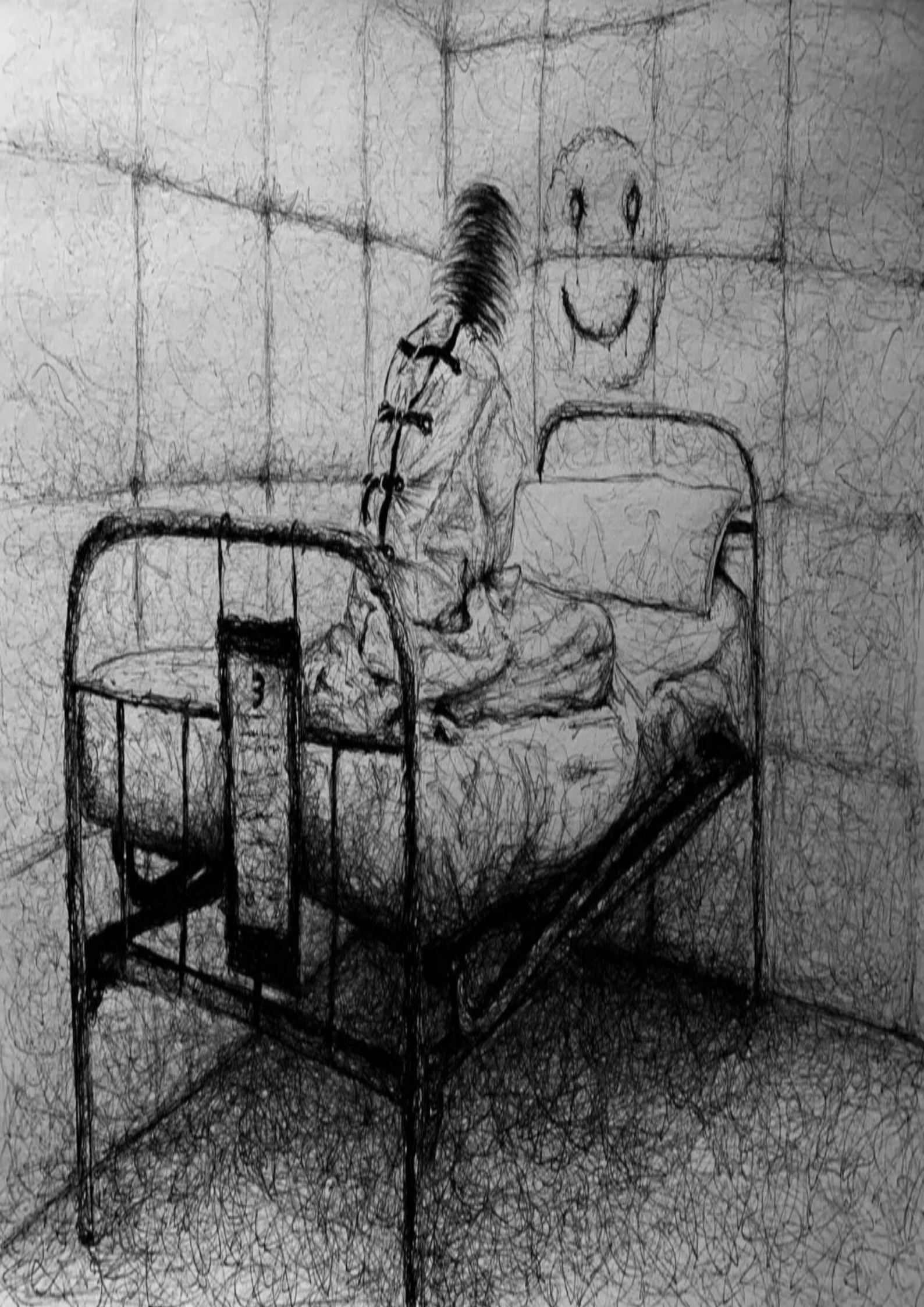

مستسلما فتح الباب، حمل الهاتف وعاد للخروج، نزل الدرجات الأربعون ناويا ألا يعدها هذه المرة، لكن فمه عدها دون إذن منه، عدها فوجد أكثر من أربعون، لم يكترث للأمر، لكن رجله وبدون إذن منه صعدت للتأكد من عدد الدرجات فوجدت أقل من أربعون. خاطب المعذب أطر افه" حسنا هل انتهيت؟" ثم نزل وهرول مبتعدا عن شقائه وألمه، ناسي أن توأم عذابه يسير معه.

استقل أول سيارة أجر لاقاها، ثم طلب من السائق أن يسير به حتى ينفذ الوقود، وهو متأكد أن الوقود سينفذ عند هذه العمارة المشؤومة، متيقن أن السائق سيحوم حول هذه البقعة دون هواه.

أصابه ضجيج المذياع بالصداع، صبر ثم صبر، ولما طلب من السائق أن يطفئ المذياع، تلفت نحوه بتعجب وقال:

" إنه أصلا مطفئ"

أراد المعذب أن يجابهه في الأمرلكنه شك أن صوت المذياع قد يكون منبعثا من داخله، يدرك مدى جنونه، هكذا بدأ مرة، مرة يفطن بالأمورويسايرها على مهل.

صوت منبعث بخشخشة إذاعة قديمة كانت تغطي أحداث الحرب العالمية الصفر، وما زالت ترددها يتردد لكن فقط ضحايا الحرب وكذا ضحايا الحياة من يسمعونها. صوت شاعر يذيع أبيات مبعثرة لعلها تجتمع بأذن ما:

***

الناس والحجارة مختلفون

فالناس متحركون منذ قرون

والحجارة جامدة ولو مرت عليها قرون

أ الناس كالحجارة لا تعقل

قلوب الناس لينة ليس كالحجارة

إرادة الناس داخلية

وإرادة الحجارة لعلة خارجية

الناس والحجارة مختلفون

تطفو الحجارة فوق الوادي بسلام وتهاجر

والناس ما هم مهاجرون ولم عم الطوفان

الحجارة مستسلمة لحكمة لربما الناس لها جاهلون

إن الناس هم من أشد تصلبا

والحجارة من أكثر لينا وحبا

الناس والحجارة مختلفون

فالحجارة متحركة منذ قرون

والناس جامدة ولو مرت عليها قرون

أ الحجارة كالناس لا يعقلون

قلوب الحجارة لينة ليس كقلوب الناس قاسية

إرادة الحجارة داخلية

وارادة الناس لعلة خارجية

الناس والحجارة مختلفون

***

ما أطفأ صوت المذياع داخله سوى صوت السائق يخاطبه قائلا:" لقد اقترب الوقود أن ينفذ"

أعطاه أجرته ونزل بالضبط عند مرمى الشقة التي يسكن فيها. رأى من مكانه نو افذها مفتوحة والستائر تتدلى مداعبة الرياح، وكأنها تلوح له بحنان قاتل وتقول:

"هلم إلي".

يشيح ببصره ليكتشف أنه فقط قد استقر بالزقاق الخلفي. فيقصده غير خائف حتى هو تعجب من شجاعته. أقبل على الزقاق مقبلا على الكلاب الشرسة، لما رأته وقفت كلها في لحظة واحدة ثم قصدته لما قصدها، وقصدها لما قصدته.

جلس القرفصاء وجلست الكلاب متقابلة معه، رفع بصره نحو شقته فرأى نفسه يطل من النافذة، نظر لنظرة الجزع التي تعتريه وهو يطل من النافذة. جالسا في الزقاق الخلفي مقابلا كلابه، هادئا غير مبالي، يتذكر نهار البارحة لما كان و اقفا بالنافذة يشاهد الشاب يطعم الكلاب من لحمه. كانت حينها قسمات الشاب ورغم أنها غير بادية له مألوفة. وهو الآن جالسا بالزقاق مقابلا الكلاب يشاهد نفسه تطل عليه. أدرك أنه هو في الأصل ذلك الشاب، هو من كان يطعم الكلاب حينها من جسده.

هكذا مد يده الى الكلاب راغبا أن تفعل ما فعلته البارحة لربما الخلاص قد حان.

تقترب الكلاب منه جمعاء، يغمض عيناه لما رمت الكلاب فمها لتقضم أول قضمة من دراعه الممتدة، يتنظر الألم والعذاب، ينتظر أن تنهشه. لكن لا ألام ولا عذاب بل العكس أحس بدغدغة حلو بجلده وقشعريرة مسالمة تعتريه، أحس بملمس لعابها الدافئ على دراعه ولسانها الحنون يلحس أصابعه بلطف. فتح عيناه فرأى الكلاب فرحة تلعب معه.

تعجب للأمر ولما رفع رأسه ناحية شقته، لاحظ أنه كان يطل من النافذة مذعورا، وكأنه يشاهد شيئا آخر، وفي الأصل قد كان يشاهد شيء آخر وهو في الشقة و اقفا يطل. أدرك حينها أن مس الشقة وسحرها كان يوهم له أن الكلاب تلتهم لحمه بشراهة.

عاد انعكاسه داخل الشقة لما أغلق النو افذ بذعر، ثم عاد هو للكلاب يلعب معها فرحا.

إنه النهار، والمهم إنه النهار خارج الشقة. ينهض من على الأرض والفرحة تعتريه، تعود الكلاب داخل الزقاق الخلفي ويعود هو الى الشارع. يعود لوحدته فيعتريه الشك أن الفرحة التي كان يحس بها مع الكلاب رغم صدقها فقد تكون خادعة مزيفة ومن ألاعيب نو اياه المجنونة.

يرغب في التأكد من ذلك، أما المعيار والقلم الأحمر المصحح عنده هو عدد الدرجات الأربعون. هكذا يعود داخل العمارة وقبل أن يصعد ينزل طفل صغير من العدم، يقفز درجة بدرجة ويعد وعند الدرجة الأخيرة يصرخ بالعدد وكأنه قصدا يحاول إسماعه لصاحبنا. أربعون.

كلما شك أن العدد قد يكون مغاير لما قاله صاحب الشقة، بعث له الغيب بشخص ليؤكد له العدد. يصعد الدرجات وهو يعد، وعند آخر درج يصمت، دون أن يتكلم بل حتى دون أن يفكر، فقط يصمت. أكيد أكثر من أربعون.

كيف للعقول المعذبة أن تشفى من سقمها وحدها؟

كيف يمكن أن تشفي نفسك و أنت سبب مرضك؟

إن النفس إن هزمت، نامت في سبات طويل غير موسمي، ولا تصحو الا بمنقذ.

يلج داخل شقته بعد أن وجد الباب مفتوحا، مرهقا هو لم يدق طعم النوم منذ مدة، ينتظر الليل أن يقبل لأول مرة، ينتظره أن يقبل باشتياق، يرغب بشدة أن يشفى، ينتظره أن يقبل ليتصل بالجارة وتجيب. سائلا نفسه:

"أ سأنام الليلة؟ "

أبى الليل أن يأتي على غير عادة. إن انتظرت شيء فتأكد أن ألف حاجز سيوضع أمامه ولن يأتي. جالسا بالأريكة مطأطأ الرأس، يتمعن في شعاع الشمس يدفئ أصابع قدمه، يتنظر بفارغ الصبر أن يخف سطوعه ويختفي، لكن الشعاع يأبى الخفوت.

*

يحمل ورقة بشكل عشوائي من وسط الأوراق المبعثرة والمنكمشة بجانب السلة، ثم يعود بها جالسا على الأريكة، ويقرأ:

***

الليل والقمر، الأسى والدموع

الأصبع المتمردة ترتعد على هوى الجسد المشؤوم

أما العقل المكبوت ينسج خيوط الوهم والزيف

مستقر عنكبوت سام شب سمه بالأوصال العقيمة

العنق المتعب من حمل رأس مشحون بالجنون

كتلة الأطنان القاهرة تزداد عند كل اطلالة قمر

طقطقت الرأس المريض عند كل فكرة قاتلة

العين السهرانة تتمعن في الوجود والعدم

الجدران الفارغة بالرعب مبهرجة

كل الجهات محاصرة لا مهرب من همس النفس الخادعة

جدران بيضاء كمستشفى المجانين

جدران تواري الخطيئة وكذا التوبة

وحدها العدمية من تخترقها

عدمية العقل المريض تستحيل أداة قاتلة مرعبة

عدمية ورعب

الزقاق الخلفي

عدمية ورعب

الرواق المظلم

عدمية ورعب

الشقة الممسوسة

عدمية ورعب

الغيب المجهول

***

رمى الورقة لاعنا فضوله، أحنى رأسه وبدأ يعد أصابع قدميه، عد عشرة دون زيادة أو نقصان، اندهش من براعته في العد لدرجة أنه شك أ من الممكن أن للبشر عدد مختلف من الأصابع وليس عشرة كما عد؟ وأن خمسة أصابع في كل رجل مجرد زيف ووهم من عقله؟ لأنه جد متأكد أنه لا يجيد العد.

الحياة القاهرة، الموت المنتظر بفارغ الصبر، الانتحار المستحيل، ليس لعدم التفكير فيه، بل لجبن اليد التي ستقدم عليه.

جالسا على الأريكة ينتظر الليل ليحمل هاتفه ويتصل، لعله طوق النجاة وليس طوق الإعدام. رصاصة أما ستحييه أو ستقتله. سحابة متوترة قد ترعد ثم تمطر في أي لحظة أمطار حمضية تتلف عقله أكثر.

يفكر فيما آلت إليه الأمور، يحاول أن يتذكر أول يوم له مع هذا العذاب. من أين بدأت هذه الأمور؟

متى كانت أول ليلة لم ينم فيها؟

ماذا كتب في أول ورقة، ما كان أول حرف؟

أكان هاء؟ هلاك.

أم حاء؟ حرب.

أم ميم؟ موت.

أي ما كان سيكون حرف مشؤوم به بدأت سمفونية العذاب عنده.

وسط العدم، داخل محيط عميق، يتخبط بين أمواجه و أفكاره، بللت أمواجه وجهه عرقا مالحا، مرفوع الادراك يعيش داخل متاهة عقله، ينتظر الليل أن يحل، وقد حل الليل منذ ساعات لكنه غائب عن الو اقع وسط أفكاره غير مدرك أنه الليل. ما زالت عينه تحافظ على آخر صور التقطتها للو اقع قبل أن يتوه داخل نفسه.

فقط لما تمايل القط الأسود على رجله ولامس فروه الناعم ساقه. استفاق من سهوته على أعين صفراء تطفو

في الظلام، إنه الليل.

حمل مباشرة دون تأخر الهاتف وهم بالاتصال ليجيبه الصوت الرقيق الحلو عند أول رنة.

هي: ألو.

هو: ألو.

هي: ما زلت شفاءك.

هو: و أنا ما زلت مرضك.

هي: سأكون أنا محياك.

هو: سأكون أنا مماتك.

هي: فقط أقبل علي وسأريك.

هو: أريني قبل أن أقبل.

هي: أقبل لألاقيك بزهرة وفستان.

هو: إن أقبلت سألاقيك ببندقية ورصاص.

هي: إني لا أخشاك.

هو: وإني لا أنصاع.

هي: إني انتصلت من عذابك لأنقذك.

هو: كيف للعذاب أن ينجب الشفاء.

هي: الداء والدواء واحد فقط غيرزاوية رؤيتك للأمور.

هو: زاويتي تقول إنك حقا دواء، لكن بفرصة مني ستستحلين داء.

هي: إني منك وأعلم ماهية أمرك ما أطلقت سراحي الا رغبة منك بالشفاء.

هو: أرى الرغبة لكن أراها داخل قفص وأشواك.

هي: مد إليها يدك وستلمسها دون أن تؤديك الأوهام.

هو: ها أنا أمد يدي.

هي: أ لمستها؟

هو: نعم، لكني وجدتها ميتة.

هي: إذا لاقيها في الجنة.

هو: أخاف أن ألاقيها في الجحيم.

هي: ولو، المهم هو أن تجدها وتلمسها، فإن لمستها عقدت العزم بها على الشفاء.

هو: من أنت؟

هي: أنا شفاؤك.

هو: قلت إنك جارتي لكني ما وجدت أبواب جيران بالرواق.

هي: دع أذنك على الحائط وستسمع دقات قلبي.

هو: نعم إني أسمع دقات منتظمة على الحائط، أهذه أنت؟

هي: نعم إني خلف الجدران ملصقة قلبي على الحائط لتسمع نبضاته.

هو: عجبا، كيف اهتديت للنقطة حيت يوجد قلب بالضبط؟

هي: إنه الحب.

هو: كيف أحبك ولم ألقاك؟

هي: إنك طاهر القلب، وحدتك سر نقائك.

قلبك الوحيد ارتاح لقلبي الوحيد.

هو: نعم يا شفائي. لقد ألصقت صدري على الجدران أتحسين بقلبي.

هي: نعم أحس به و أتقطع لنوتات أوتاره المتقطعة.

هو: إني مشتت، من فضلك اجمعي أشلاتي.

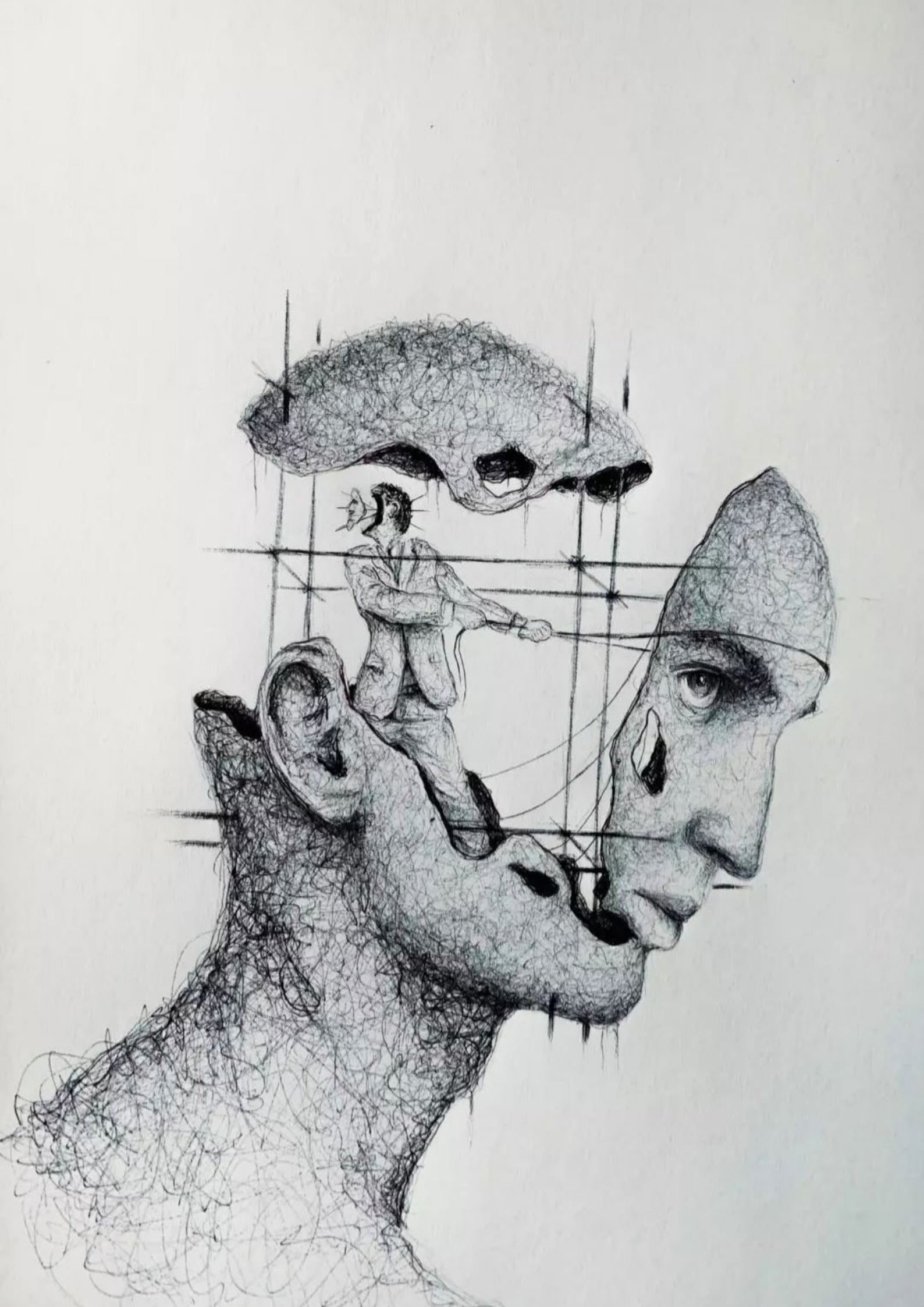

هي: ما وجدت إلا لذلك يا كمالي وموطني.

هو: أنقذيني امسحي دموعي.

هي: إنك أنقذت نفسك لما نويت.

هو: حقا لا أعلم ما بي إني أتخبط داخل محيط شاسع ومظلم. أمواجه لا تستقر بتيار واحد، بقعره بركان نشط تزيد لافته زحزحة القارات لكيلا أصل للیابسة يوما.

هي: إني بوصلة خروجك إني النجوم المشعة بشغف في السماء لتهديك. فقط أقبل علي إني شفاؤك، أنتظرك بفستان وزهور.

هو: ما عدت أخاف أن ألاقيك ببندقية ورصاص، لكني حقا لا أعلم بما سألاقيك.

هي: اجلس واسترخي، اتكئ على الحائط الفاصل بينها واعلم علم اليقين أني هنا أعيش بانتظارك.

هو: لقد جلست وكلي يقين.

هي: أتحس بظهري متكئ على ظهرك.

هو: نعم أحس به، انعدمت الجدران بيننا، بات ظهرك من يسندني، بل حتى إني أسمع شهيقك وأحس بزفيرك يدفئ رقبتي.

هي: التفت لتراني.

هو: أخاف أن ألتفت ولا أرى سوى الجدران.

هي: لقد مددت يدي كجناح، أتحس بها؟

هو: نعم لقد ضرب الهواء رأسي، أحس بحركاتها والآن سأمد يدي لأحس بملمسها.

هي: يدك حنونة دافئة.

هو: يدك رطبة ناعمة.

هي: أنت محياي.

هو: أنت شفائي.

هي: التفت لتراني.

هو: أخاف أن تختفي.

هي: إن اختفيت هدم الجدران، و اقفز إلي.

هو: حسنا، سأهدم الجدران و أقفز إليك.

هي: لكن قبل أن تقفز أحرق الشقة، أحرق الماضي والعذاب.

هو: صدقا قلت، سأحرقها.

هي: أحمل جل الأوراق التي كتبت في المنام، أحرق كل شيء سواها، ثم آتيني روحا جديدة.

هو: أ الأوراق مهمة لهذه الدرجة؟ رغم أنها بخط يدي لا أعلم متى كتبت وأي حكيم كتبها؟

هي: إنه أنت ذلك الحكيم، كتبتها لتكون نجاتك، إني أنا محبوبتك منها انبثقت.

ومن ينقذك إن لم تكن كلماتك؟

هو: نعم من ينقذني إن لم تكن كلماتي.

هي: إذن أحرق وأهدم و أقبل علي.

هو: حسنا انتظريني يا حياتي بزهرة وفستان.

*

مشى نحو المطبخ وسط الظلام، جل الأثاث تنحى من أمامه، وكأن الأثاث سمع الحوار الذي دار، وترغب بالاحتراق طواعية. فتح قنينة الغاز لأقصاها، ثم حمل الولاعة دحرجها بين أنامله ووضعها بجيبه. هم بالبحث عن المطرقة المحظوظة التي سيهدم بها الجدران، لم يتأخر في البحث. أطلت عليه المطرقة طواعية من زاوية مظلمة، وشعاع القمر ينعكس على حديدها.

جمع الأوراق التي كتبها في منامه من على السلة ثم رتبها في كتاب واحد وضعه داخل صدره بين اللحم والقماش. ثم حمل المطرقة وتوجه نحو الحائط حيت كان ينبض نبض حياته الجديدة.

هم بالضرب على الجدار، وفي حركة سنيمائية أشعل الولاعة لترمي شرارة زرقاء من مخرجها الأحمر، ثم رماها خلفه، وبدأ بتهديم الحائط ضاربا بكل قوة، ووراءه تتلاعب نيران حمراء تطهر الشقة من الشؤم والمس.

تضرب النار وراء ظهره بعنان، وهو يضرب الجدار ليسقط أخيرا معلنا عن حياة جديدة. صنع تقب بالحائط، تقب كان كفيلا بإدخال شعاع نور طاهر، ونسيم هواء متسارع ليزيد لهيب الحريق، ويولد انفجار ضرب ظهر المعذب ليصطدم بالحائط، ثم ينهض من جديد مكملا ما نوى فعله.

صنع عدة تقوب مشكلة دائرة، وفي حركة واحدة ضرب بكل ما أوتي من قوة، هو والنار، وسط الدائرة ليسقط الجدار منهزما ومعه كل الجدران.

يقفز وسط الدخان عابرا الجدار المهدم، يقفز الى الحياة الجديدة يقفز الى شفائه، يرمي الهاتف خلفه وسط النار لتلتهمه. ما عاد يحتاج صوت حبيبته الحياة فهو مقبل عليها بروحه وجسده وعقله. وستلاقيه هي بزهرة وفستان.

يقفز وكله ثقة أنه: سينام الليلة.

يقفز داخل الهوة التي صنعها بالجدران، يحيطه نور أبيض ساطع، نور كان كفيلا أن يعميه لثوانٍ، ثواني مر فيها شريط حياته، شريط كان خاويا لا أصدقاء ولا عائلة، فقط العذاب والألم.

لما عاد له بصره رأى الحقيقة، اكتشف أنه يطفو في الهواء لم تجد رجله موضع قدم، لا توجد هناك شقة لجارته، قفز الى الفراغ.

قفز نحو الشارع، وحده الشارع من كانت تطل عليه تلك الجدران.

كل تلك المكالمات خدعة من عقله، هواجسه المريضة ووساوسه انتصرت عليه في هذه الحرب النفسية.

انتحر دون وعي منه. باطنه لفق له كل الأحداث والنوايا فقط لينتحر، وساوس نفسه المريضة علمت أن جسده لن يستجيب لانتحار كلاسيكي، هكذا حاكت ألاعيبها وأدت به إلى الانتحار دون وعي منه.

يهوى نحو الهاوية قائلا:

" الموت وحده الكفيل بأن أنام كل ليلة.

أ سأنام الليل؟

نعم سأنام كل ليلة"

لم البكاء.

وما نفع الشهادة و أنت تنتحر؟

*

ارتطم بالأرض، غطس وسط دمائه التي سبقته لتفرش له الأرض قبل ارتطامه. تطايرت الأوراق في السماء لتغطيه عند سقوطه. يتفرش دماءه ويتغطى بمداده.

تحلق الناس من حوله، يشاهد برمقه الأخير أول مرة أناسا حقيقيين. لا يحس بألم ولا يعتريه عذاب.

في سكرات الموت فقط، يطفو المعذبون بسلام وطمأنينة.

بأنفاسه الأخيرة رأى ملاكا أبيض يضرب بجناحه نازلا من السماء ببياضه وسلامه، ليقبض روحه.

لكن قبل أن يصله الملاك يطلق زفيرا روحانيا يكاد يرى فقط بأعين الموتى، ريح الملاك اختارت ورقة بين الأوراق ليسقطها على وجه المعذب.

ورقة كتبها في لحظة صبر ويقظة بعيدا عن وساوس النفس والشيطان، ورقة اختارها له الملاك، ليقول له:

هناك هداية قبل الجزاء.

لو وجد الورقة قبل أن تلتهمه نفسه المريضة لربما نجى، لكن الظلال أعمته ووفرت له جل الطرق، لكنها فقط طرق ختامها موت.

حمل الورقة بأنفاسه الأخيرة، وقرأها قبل أن يصل إليه الملاك ويأخذ روحه النقية لملكوت السماوات والأرض.

***

من ينقذني إن لم تكوني أنت يا كلماتي

من أين لي بجناحين إن لم ينبثق من ظهري

من يفهمني إن لم تكن أنت يا وجداني

من يرمم قلبي إن لم يكن أملا زائفا

من يطبطب على كتفي إن لم يكن كفي

من يطفو بي إن لم يكن أنت يا وعي

من يفرد وجودي إن لم يكن أنت يا عقلي

من ينقذني إن لم تكن كلماتي

لسان حالي لسان أبكم

وما البكم عندي محتم

بصر حالي بصر كفيف

وما العمى عندي مقدر

لربما تصديت سيفا ليقطع لساني

لربما حجبت سهما ليفقأ عيني

إني قايضت مجمعي بحواسي

لعلي أشتري توحدي وأصقل ما تطفل عليه مجمعي

من ينقذني إن لم تكن كلماتي

صبرا يا جسدي فالمنجد مد يديه

و اقترب الأوان

هبت الرياح وضمتني مطرا أمطروقبل رأسي

فانشرح صدري

ما أذنبت وما تباطأت يوما عن التدرع

وما شيء سيؤديني

لأني علمت أن لي إلاه سيحميني

تعاليت لما جهلت وبكيت لما علمت

صعدت وعند كل درجة انحنيت شبرا

وعند آخر درج وجدت نفسي أسجد

ووجدت روحي تنقبض

من أفنا روحه دون الصعود

ختم مصيره بالنزول

ارتقي إلى الجنة

أو أدنو إلى الجحيم

من ينقذني إن لم تكن كلماتي

لربما أرسم قنطرة عبوري لهناك

إني أبصرته وما زال في **الأفق لم يلح**

أخيرا لاح وقلبي استراح

جميلة هي الحياة

إن أبصرلا رأيت

إن سمعت لا تكلمت

إن تبسمت لا غضبت

إن حمدت لا أنكرت

جميلة هي الحياة

ما العبودية بدل و إنما كمال

ما وجدت الكمال إلا و أنا عبد

ما القفل بحديد وما المفتاح بمعدن

إنما القفل شدائد والمفتاح ذكر

فبالمفتاح تفتح الأقفال

وبالذكر تفتح الشدائد

سموت لما دنوت

تحررت لكما عبدت

شفيت لما بكيت

خجلت لما فطنت

ارتحت لما سجدت

ما بحياتي أمل فالأمل يشحن الكسل

لكن بحياتي إيمان فبالإيمان تنجح

عقلتها وتوكلت ثم بدأت رحلتي

الآن أنا ماض في دربي

ما زلت لم أصل لمرادي لكن سأصل

من ينقذني إن لم يكن ربي

من ينقذني إن لم يكن ربي

أرني أنظر إليك

فحتى لكلمات سلم قد يدنوبي أويسمو

سأتوكل لعلى الرضا

ينحني بظهر شبرا، شبرا

حتى أرتقي وأسجد وتقبض روحي بسلام

بسلام

***

يبتسم ثم يموت.

الكاتب: أشرف حمامة

achrafhamama3@gmail.com

الرسم: Axil Tinsit Instagram:

الكاتب هو أنا، فمن أنا؟

أنا الذي يرتعش بردا والنار أمامي

أنا الذي تخطيت فيل ونملة جمدتني

عقلي جبال شامخات

قلبي بحر المحيطات

جسدي آدمي سجين الأرض

لكن

روحي ملائكية، تفاوض عن حريتي

بمحكمة السماء.

لمن الكتاب؟

للأرواح المبعثرة للنفوس المقهورة

أقول

هنا الداء والشفاء

و

هنا الهداية قبل الجزاء

الحياة عزاء

سميتها العزاء لأنها ماتت ولم يعد لدي إلا النواح

الحياة عزاء على من بقي أما من راح فقد ارتاح

هكذا أمورنا ألواح مبعثرة وحتى لو تجمعت ظلت صورا مشوهة

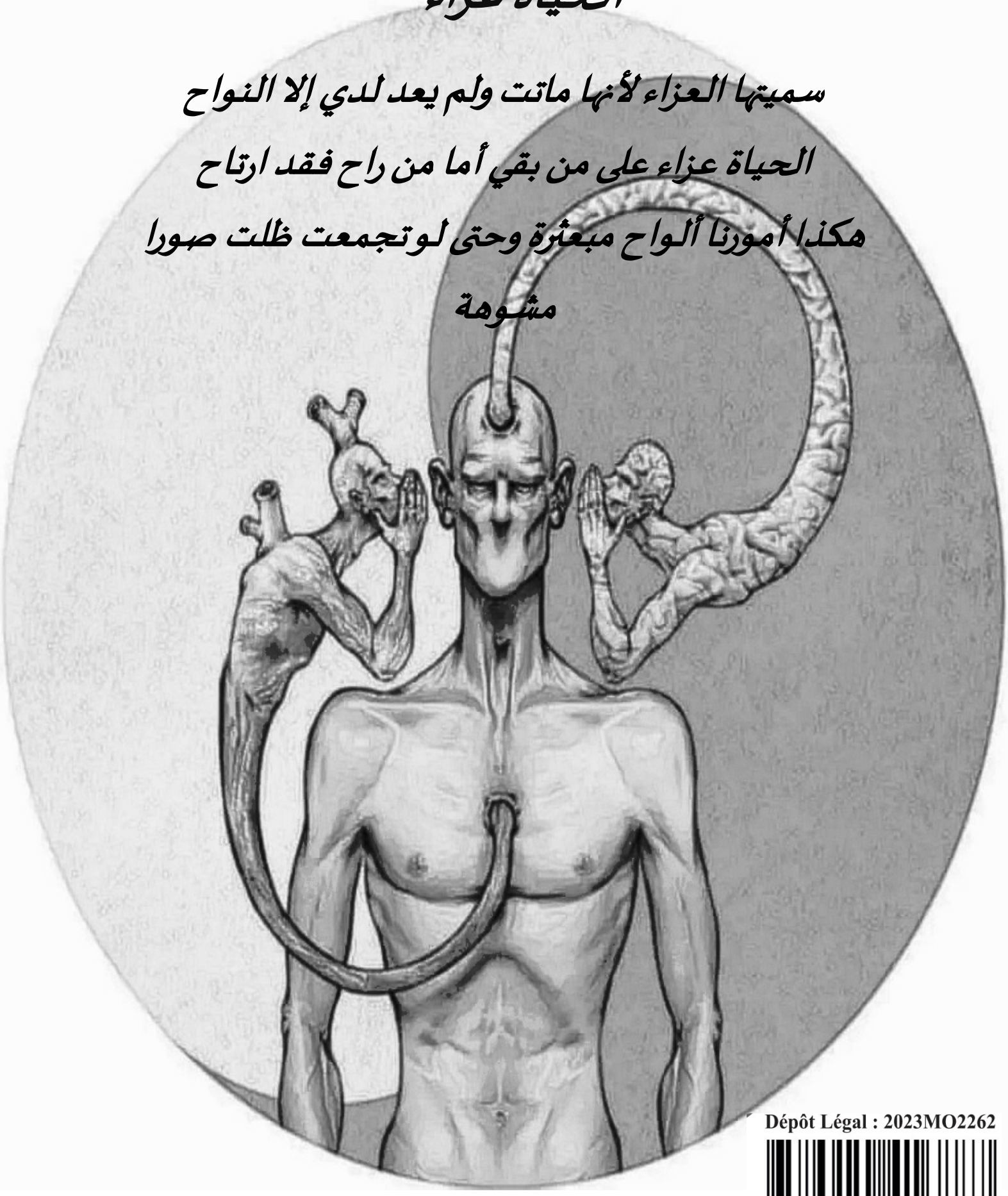

Dépôt Légal : 2023MO2262

9 789920 416887